


مهرجان القراءة للجميع



# تنويعات.. على لحن السندباد

د. حسن فتح الباب

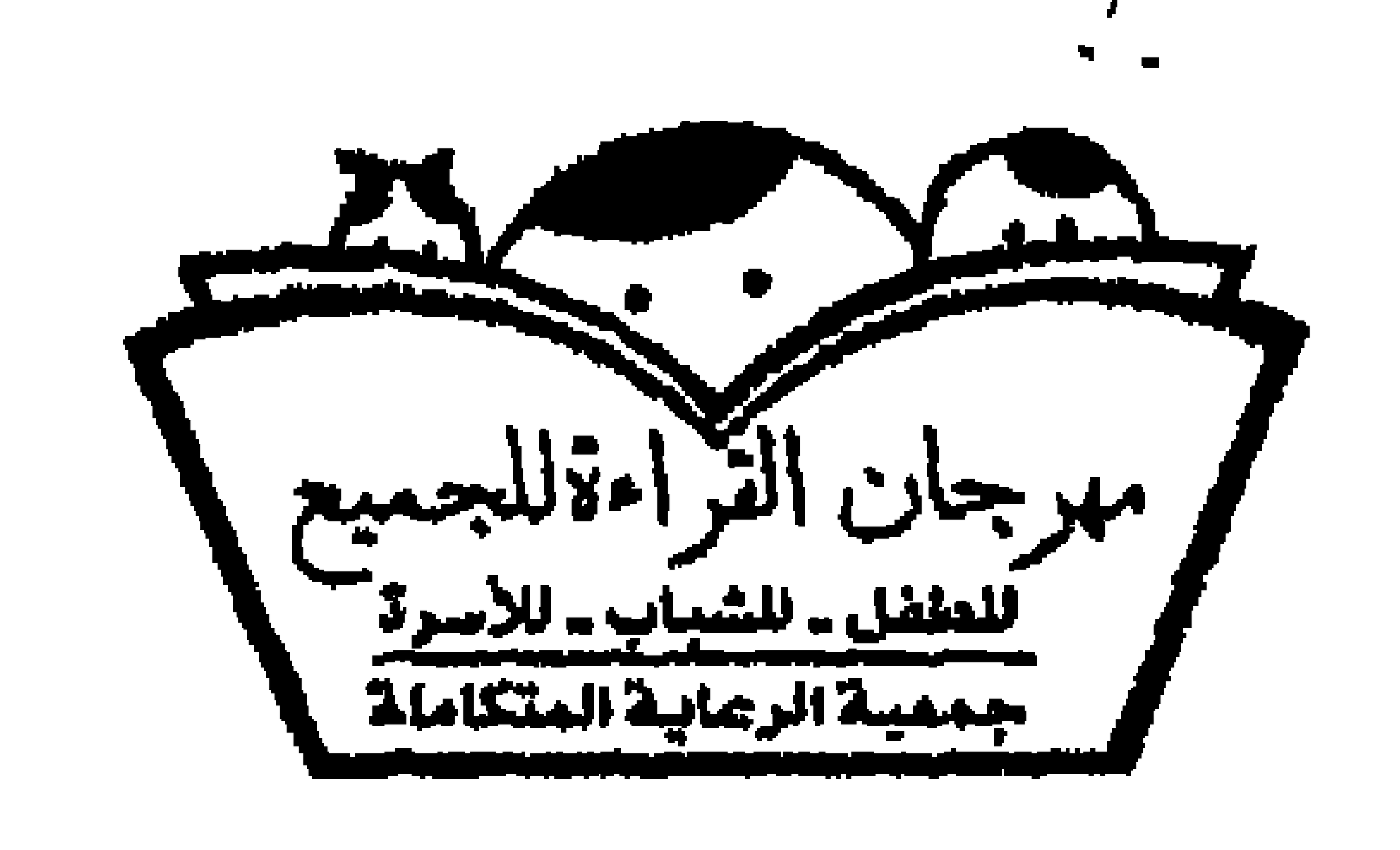





من أدب الرحلة

# تنويعات..
# على لحن السّندباد

د. حسن فتح الباب




# مهرجان القراءة للجميع

# مكتبة الأسرة

## برعاية السيدة / سوزان مبارك

المشرف العام

د. ناصر الأنصارى

الإشراف الطباعى

محمود عبد المجيد

الغلاف والإشراف الفنى

صبرى عبد الواحد

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

# تقديم

- منذ خمسة عشر عامًا أطلقت السيدة الفاضلة سوزان مبارك فكرتها الرائدة عن مشروع القراءة للجميع، هادفة إلى إتاحة فرصة القراءة لجميع أفراد الشعب، بعد أن كانت أسعار الكتب قد وصلت إلى أرقام كبيرة لا تحتملها ميزانية كل راغب فى القراءة والمعرفة.
- ولاشك أن أى مؤرخ للحركة الثقافية فى مصر سوف يتوقف كثيرًا عند فكرة هذا المشروع، وأثره الكبير على الثقافة والمثقفين فى مصر فى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين.
- وقد أسهمت الهيئة المصرية العامة للكتاب فى هذا المشروع «بمكتبة الأسرة» التى تصدر بانتظام منذ أحد عشر عامًا، وتستعد لخطوة أخرى من التطوير فى عامها الثانى عشر.
- لقد قدمت هيئة الكتاب على مدى السنوات من ١٩٩٤ إلى ٢٠٠٤م ومن خلال مكتبة الأسرة بسلاسلها المختلفة ٣١١٣ عنوانًا فى

مختلف فروع المعرفة، طَبعت منها أكثر من ٣٧ مليون نسخة وطرحتها فى الأسواق بأسعار زهيدة فى متناول الجميع، تبدأ من عشرة قروش وتتدرج، ولا تزيد عن ثلاثة أو أربعة جنيهات للكتب الكبيرة الحجم، أو متعددة الأجزاء.

● وهذه الأرقام تعطى دلالة لعدد المستفيدين من القرَّاء، ولعل جزءًا كبيرًا منهم من القراء الجدد.

● ولكن المستفيد لم يكن القارئ وحده فقد عادت الفائدة أيضًا على مجموع الكُتَّاب الذين أسهموا فى مكتبة الأسرة، وقد بلغ عددهم ١٣٦٨ كاتبًا كما عادت الفائدة أيضًا على المطابع، ودور النشر الأخرى التى شاركت فى المشروع. وبالتالى فالفائدة قد عمَّت كل الأوساط الثقافية المهتمة بالكتاب.

● وقبل انطلاق مكتبة الأسرة لعام ٢٠٠٥م خلال الشهر القادم نعيد طرح حوالى مائة عنوان فى ثوب جديد، ويُعتبر ذلك تقدمة لانطلاقة أخرى لمكتبتنا.

● فإلى اللقاء مع مكتبة الأسرة ٢٠٠٥م الشهر القادم بإذن الله.

القاهرة — ناصر الأنصارى

مايو ٢٠٠٥

# مقـــدمة

بيت شوقي المأثور : قد يهون العمر الا ســاعة ، وتهون الأرض الا موضعا ، ليس تعبيرا عقريا عن عاطفة الحب فحسب ، وانما هو أيضا تصوير موجز نافذ للبعد المزدوج لمعنى الانتماء . فقد يكون الانتماء للزمان كما قد يكون للمكان . وهذه الصفحات التى أقدمها للقارىء كتبتها من وحى رحلات فى أزمنة تختلف فى تاريخها وأمكنة تتباين فى جغرافيتها ، غير أنه يجمعها معا وقعها العميق فى نفسى وأثرها فى مسيرتى الحياتية والابداعية التى واكبت مسيرة وطن ورحلته فى التاريخ الحديث .

فاذا غلب على كتابة المشهد وصف تضاريس المكان وروحه صح أن تدرج فى باب أدب الرحلة . أما اذا سيطر على الكتابة تصوير خفقات القلب وحرارة الوجدان ، فان الكتابة تعد فى هذه الحالة من أدب المذكرات أو السيرة الذاتية أو أدب الاعتراف . وليس ثمة فاصـــل حاد بين النمطين لأنى لست رحالة ولا عالما جغرافيــا ، وانما أنا شــاعر يمتزج فى احســاسه وفكره المكان

والزمان . فأما الأول فيمتد من أدق ذرة فى تراب مصر الى أبعد نجم فى سماء هذا العالم . وأما الثانى فيبدأ منذ ساعة ميلادى ويستمر حتى الساعة التى كتبت فيها هذه الصفحات .

ثلاثية اليوم والأمس والغد فى هذا الكتاب توازى مسارات الزمان أو تتقاطع معها ، لتنتج عن هذا التلاحم أو التوحد خواطر وتأملات وذكريات ، أحسب أنها قد تفيد القراء ولا سيما أبناء الجيل الجديد ، وان لم أتعمد أن أحقق هذا الهدف ، وانما كان دافعى أن أستخرج ما فى أعماقى لأتعرف على حقيقة ذاتى ولأروى بعض ظمئى الى البوح ، وقد عبر شيخنا الكاتب العظيم يحيى حقى عن هذه النزعة بقوله ( قدر الكاتب أن يتعرى ليكتسى الآخرون ) .

ومن ثم فقد اتسع الأفق السندبادى فى هذا الكتاب ليشمل السفر داخل النفس ، والسفر فى بلادى وفى المدن الأخرى التى عشت فيها أو أتيح لى زيارتها ، وكثيرا ما اجتمعت كل هذه الأسفار فى باقة واحدة كلما استعملت أسلوب تيار الوعى .

وليس من عادتى أن أكتب يوميات أو مذكرات . ولذلك فانه من النادر أن أكتب فى اليوم الذى وقع فيه الحدث أو الاحداث التى أرويها مركزا على مكانهـــا أو زمانها . والأغلب الأعم أن أكتبها بعد وقت يقصر حتى لا يزيد عن بضعة أيام أو يطول الى سنوات . لذلك كانت فصول هذا الكتاب من فيض الذاكرة ، وكان الكتاب فى جزء منه من أدب الرحلة ، وفى أكثر الأجزاء من أدب الافضاء . كما كان مزيجا من الواقع والخيال .. من عزف الجسد على وتر الروح وعزف الروح على قيثارة الجسد . وكان الانسان ــ أنا أو غيرى ــ بؤرة الصورة التى تجلت لى حين أمعنت النظر فى الطبيعة فى بلد قريب أو بعيد عرفت خطواتى طريقى اليه ، وامتلأت روحى به ففاض وحيها على قلمى .

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب من أدب النثر ، فانه ينطبق على كثير من فصوله فيما أرى بعض الخصائص الفنية والفكرية التي تبينها الناقد الدكتور رمضان بسطاويسى فى دراسة له عن ديوان لى صدر سنة ١٩٨٧ وعنوانها ( فلسفة السفر والابداع الثقافى ـ قراءة فى ديوان ( مواويل النيل المهاجر ) ، وتتمثل هذه الخصائص فى قوله :

( هذا الديوان أشبه ما يكون برواية تصف رحلة بكاملها ، وهى رحلة داخلية وخارجية : داخلية بمعنى أنها تجوب داخل الذات المصرية ، وتقدم تركيبا خصبا للثقافات المتداخلة فى بنية الثقافة المصرية الأم ، وكأننا نسير فى عروق النيل ، لنستشعر نبض الأرض التى يمر الشاعر من خلالها ، فهو يحمل سماته الخاصة وهو يغترب عن المكان ، فلا يذوب وانما يقاوم اجتياح مفردات الخارج لروحه ، ولذا يتخذ من النيل عنوانا لديوانه ومن المواويل اسما لأشعاره وأناشيده ، لأن النيل دون الأشياء جميعا ـ حين يهاجر يحمل معه طميه وسماته وملامحه، فالشاعر عبر رحلاته يتوحد بالنيل ليقرأ ذاته فى الآخر ٠

السفر فى هذا الديوان له فلسفة خاصة ذات مستويات مركبة ، فهو يتحول من خلال التوحد مع الكون الى قراءة الوجود الانسانى بمستوياته الوجدانية والسياسية والاجتماعية٠ فالتوحد مع الكون يجعل من مدارات الكون مدارات للذات التى تريد أن تعود الى نفسها ٠ ولذلك تتواصل الذاكرة الثقافية من خلال التناص مع التراث ومفرداته والأسطورة وتاريخها ) ٠

ولما كانت فصول هذا الكتاب تخاطب الروح وتتغيى من كتابتها تعميق الوعي بالذات وبالآخر من خلال علاقة سوية بينهما ، فقد تضفرت بعضها بقصائدى واتخذتها وشاحا لها ،

فأصبح الشعر والنثر بنية واحدة وزالت الحدود بينهما ، وذلك لأن الشعر ضرورة كما قال الفنان الفرنسى كوكتو وان كان قد أضاف الى ذلك التعريف عبارة ( وان كنت لا أعرف لماذا ) ؛ وهو ضرورة للحياة كى تستمر وتسمو وللابداع كى يغذى القلب ويزيد الانسان عراقة فى انسانيته كما قال المازنى .

واذا كنت قد أفضت فى الحديث عن ذكرياتى مع بعض الشخصيات من مغمورين ومشهورين راحلين ، فقد كانت هذه الافاضة للدلالة على الشخص وعلى زمنه أيضا مقارنا بعصرنا . وبذلك كان المكان والزمان اطارا للفعل الانسانى ، وكانت الكتابة قراءة فى تاريخ هذا الفعل من خلال ذلك النموذج الانسانى ، وتحولت الحروف والسطور الى كائنات حية تحاورنى وأحاورها .

وقد استرسلت فى تصوير علاقتى باحدى هذه الشخصيات فى أثناء رحلتى الى محافظة المنيا ، وهى شخصية الشيخ الحافى ولى الله الصالح الذى يقال اننى من أحفاده ، وضمنت كتابتى النثرية القصيدة التى أوحى بها الى ؛ فذلك لأن عثورى على هذه الشخصية التى رحلت من دنيانا منذ عهد بعيد كان تجربة فى المكان والزمان هزتنى هزا كأنها زلزال اجتاحنى ، وهذه التجربة كانت سفرا للروح فى عالم المجهول وان كانت قد انبثقت من الواقع ، مما جعل الواقعية عندى بلا ضفاف حسب تعبير الفيلسوف الفرنسى جارودى . فقد تنقلت من الواقع الى الغيب ثم من الغيب الى الواقع ، ومن الاحساس بالذات الى نقدها ، فدخلت الميتافيزيقا والخيال فى عروق الشعر والنثر ، وتعانقت الرومانسية مع الواقعية والرمزية والوجودية والسريالية « الواحد فى الكل ، والكل فى الواحد » وتلك هى الحياة والمصير من خلال ثلاثية الميلاد المتجدد والموت والبعث أو الخلود .

وحسبى أن يجد صوتى والأصوات التى سكنتنى وعبرت عن ايقاعها صدى ولو ضئيلا فى نفوس المهمومين بالمجتمع وبالعالم والعاشقين للحرية والعدل والحب والجمال ، والمتحرقين شوقا الى تحقيق الكمال الانسانى ، والباحثين عن النواة الحية فى صراع الانسان من أجل وطن أجمل وعالم أفضل ٠

١٩٩٩ **د٠ حسن فتح الباب**

# أصداء عصرية من قرطبة القديمة(١)

★ مسافر متاعه الرحيل الى الرحيــل ٠
★ خلف الطفل الضائع فى البريــة ٠
★ فسرهموآتينــاه على الهرم ٠
★ غيران من بحثت عنه ٠٠ لم اجــده ٠
★ كفان تتعانقان على نصب تذكارى قرطبى ٠
★ ولادة تنتحل شعر ابن الرومى بعد الف عام ٠
★ شاعر يطارد وآخر على رقعة الشطرنج ٠
★ عدوى الزمان القبيح تصيب الشاعر العاشق ٠

حملنى فى الصيف الى الجناح الآخر للمتوسط ، هناك حين رسونا تبادلنا المواقــع فحملته ٠ كان طائر الهموم ، وكنت قد أجهدته من رحيل الى رحيل ٠٠ فالآن حق له أن يستريح ٠٠ ضرت

فارسا صيادا فى آخر الزمان ، وصار هو الصقر العربى محمولا على كاهلى فى بلد كان يوما مستزادا لحوافر « صقر قريش » • ولم تكن عودته بخفي حنين ، وانما بالبكاء والحنين : « يا زمان الوصل بالأندلس » •

فى قرطبة تحقق الحلم كئيبا وشاحبا كالهلال فى المحاق •• حلم الصبا الجميل •• وتذكرت قصيدة للشاعر الانجليزى هاوسمان يأسى فيها لعبث القدر به ، اذ حرمه فى صباه من المال الذى يمكنه من شراء ما تستهى نفسه من مباهج الحياة • ثم جاد عليه به وهو شيخ زاهد فى تلك المباهج عاجز عن الاستمتاع بها ، فما أغنى عنه ماله شيئا : « تغير الزمن اليوم ، فلو أردت الشراء لاشتريت • هنا الدراهم فى الكيس وهناك أشياء الأمس فى السوق • ولكن أين ياترى ذلك الفتى المحروم ؟ » وتداعت فى الذاكرة أبيات ابن الرومى الساخرة فى وصفه رحلة الشتاء ورحلة الصيف ومكايدات زمنه له ، وبيت فريد لشاعر عربى فى مفارقات القدر عطاء ومنعا فى رحلة العمر :

**آواه لو عرف الشباب**
**وآه لو قدر المشيب**

هم واحد وهو المعادلة الصعبة فى الجمع بين نقيضين وان تغير أحد طرفيها وبقى الآخر ثابتا •• فهى عند الشاعر الانجليزى قوة الرغبة وضعف الحيلة فى الصبا ، فى مقابل ضعف الرغبة وقوة الحيلة فى الشيخوخة • وهى عند شاعرنا العربى امتلاك الشباب القوة وافتقاره الى الحكمة ، فى مقابل امتلاك الكهولة الحكمة وافتقارها الى القوة •

• وامتزجت فى أعماق الشيخ المتجول فى دروب قرطبة المزهرة أصداء هؤلاء الشعراء بصوت أبى الطيب الحزين المهموم :

آتى الزمان بنوه فى شبيبته
فسرهم واتيناه على الهرم

واحتوتنى القافلة فطالما تهدجت الأنفاس لهاثا لادراك الطفل الضائع فى البرية . وحين وجدته كان مطفأ البريق فى العينين . وان ظل يحمل قلب طفل وربما الدهشة لبرعم أخضر ، وقد نبت فى صدره جرح ندى كالوردة .. وغمغمت بأبيات كتبتها منذ سنوات خلف أسوار السجن المفتوح :

مسافر الى الشمال

زهر من اللوتس .. حزمتا شعاع

مسافر بلا متاع

ألقى بى القطار فى محطة محتشدة

رأيت فيها من رأيت غير أن من

بحثت عنه .. لم أجده

* * *

هذه قرطبة ولادة وابن زيدون .. كفان تتعانقان على نصب تذكارى أقامه المركز الاسلامى الأسبانى بمدريد فى ركن من حديقة عامة حاملا رسالتين .. قصيدتين .. رقيقتين محفورتين على الرخام الصقيل ، كأنهما — رغم ما علق بهما من غبار — تشيعان فى هيكله الجامد البارد الذى يحمل الكفين بعض حرارة أنفاس العاشقين .. يتبادلان فى الموت والغربة حروف القلب الوردية الضوئية كما تطارحاها فى الحياة والوطن ، بين جدران القصور المحفوفة بالأسرار والوشايات ، والتى لم يعرف أربابها الحب أبدا كما

عرفته ابنة الخليفة المخلوع وشاعرها العاشق المضيع - أديبا ووزيرا - على رقعة شطرنج السلاطين ، بين بلاط ابن جهور - حين يستوزره - وبين سجنه - حين يغضب عليه - شنشنة نعرفها ويعرفها ابن زيدون من أخزم ، وأخزم هنا هو ملوك الطوائف بالأندلس .

فهو لم يكن يجهل أنه يغامر اذ يعمل فى الحاشية ، فلاشك أنه قرأ « كليلة ودمنة » فعرف مؤامرات القصور ، وربما كانت مغامرته - فى ظنه - محسوبة ، فاذا أخطأ فى الحساب فانه يرجع الأمر كله للقدر كما نرى فى قصيدته التى كتب بها الى أحد الرؤساء ، وهو فى سجن ابن جهور الذى استولى على قرطبة فزال ملك بنى أمية ثم ملك العلويين ، وفيها يشير الى سبب سجنه وهو اتهامه بالمروق والتضليل ، مما يدخل فى باب التآمر والتحريض على السلطة :

ما على ظنى بـــاس
يجرح الدهر ويأســو

ربما أشرف بالمـــرء
على الآمال يـــاس

ولقـد ينجيك اغفـــا
ل ، ويؤذيـك احـتراس

ولكم اجـدى قعـــود
ولكم أكدى التمــاس

وكذا الحـكم : اذا ما
عز نــاس ، ذل نــاس

ما ترى في معشر حا
لوا عن العهد ، وخاسوا ؟

ورأونى ســــامريا
يتــقى منــه المســاس
أذؤب هــامت بلحمى :
فــانتهاب وانتــهاس

ولا شك أيضا أن ماشهده من التقلبات فى عصره وانعكاسها على حياته حتى اضطر الى العمل فى ديوان آل عباد بأشبيلية تاركا مدينته المحبوبة قرطبة حتى آخر العمر ، لاشك أن ذلك قد أوحى اليه برسالتيه الشهيرتين « الجدية والهزلية » .

يصدح الشاعران فى حديقة العشاق بقرطبة غير بعيد من جامعها التاريخى العريق ، وتمرح الطفولة وقد التف شباب قرطبة العصر يتبادلون الحب على الطريقة الأسبانية التى تعطى الطريق بعض حقه على خلاف باريس ولندن .. النصب فى نصفه الأعلى – ويا لرهافة احساس المثال وتقديره للمرأة – محفور عليه بيتان كتب تحتهما « ولادة » :

أغار عليــك من عينى ومنى
ومنــك ومن زمانك والمكان

ولو أنى خبأتك فى عيونى
الى يوم القيــامة ما كفانى

وجمت للوهلة الأولى ، فولادة امرأة مثقفة ناعمة من بنات الملوك ، ولكنها فيما أعرف لم تبلغ هذا المستوى من الشعر ، وبقى

معي هذا الهاجس حتى أسعفتني ابنتي ـ بعد أن خانتني الذاكرة ـ بأن البيتين لابن الرومي ، وأنها استشهدت بهما في بحث كتبته للتدليل على توليده للمعاني واستنفاده اياها حتى لا يبقى بعده قولا لقائل كما وصفه النقاد القدامى ، وأني قد نبهتها الى أبيات أخرى له تصلح نموذجا آخر لتلك الخاصة الفنية عنده :

أعانقها والنفس بعد مشوقة
اليها وهل بعد العناق تدانى

وألثم فاهـا كى أبرد غلتى
فيزداد ما ألقى من الهيمـان

كأن فؤده ليس يروى غليـله
سوى أن يرى الروحين تعتنقان

وأضافت : مازال سوء الطالع يطارد ابن الرومي حيا وميتا حتى يأتي بعد أكثر من ألف عام من ينسب شعره الى غيره وهو الذي لم يكن يملك شيئا سواه ، وطالما تحسر قائلا :

لم أكن دون مالكى هذه الأملاك لو أنصف الزمان المحابى !

وأصابت عدواه ابنة المستكفي التي جاء بها الزمان بعده بنحو مائتي عام ، حين انتحلت شعره بعد أن فارقت الأندلس الى العالم الآخر بمئات السنين . وكأنما لم يكف الجانى المجهول عبثه بالشاعر والشاعرة ، فعبث بالشعر بتحريفه عن مواضعه فهو في أصـله :

أغار عليك من عيني رقيبـى
ومن عيني وعينـك والزمان

ولو أني وضعتـــك فى عيونى
الى يـوم القيـــامة ما كفانى

ولم ينج ابن زيدون مس المأساة الادبية فى عصرنا القبيح ، فقد نسب اليه فيما حفر على النصب بيتان ركيكان لم يسلما وزنا ولا قافية ، فأين من نونيته المشهورة هذه الراءات المحتضرة :

يا من غدوت به فى الناس مشتهرا
قلبى يقـاسى عليـك الهم والفـكرا

ان غبت لم ألق انســانا يواسينى
وان حضرت فكل النـاس قد حضروا

لغو لا ينحدر اليه من يقول هذه الأبيات التى لا تنسى :

ودع الصبر محب ودعـــك
ذائـع من سره ما استودعك
يا أخا البدر سـناء وسـنى
حفظ الله زمانا اطلعـــك
ان يطـل بعدك ليـلى فلكم
بت أشكو قصر الليـل معـك

## أصداء عصرية من قرطبة القديمة (٢)

- قيس بن الملوح بين تيماء وقرطبة •
- عبق الورد والتاريخ فى المشربيات القرطبية •
- الحجارة وحدها تتكلم لغة ابن رشد وابن شهيد •
- ابن عبد ربه مليح الأندلس عند المتنبى •
- ذهبت الوزارة والرياسة وبقى طوق الحمامة والملل والنحل •

رفيقة البراعم والأشواك فى ذراعى ، أنفاسها حرى بالحلم المستعاد ، ولكن عبء الصخرة يشغل تجاويف الضلوع ويثقل العظم المنخور •• قارب لا يستطيع الابحار ، يعود أبو الطيب مرة أخرى :

أصخرة أنا مالى لا تحركنى
هذى المدام ولا تلك الأغاريد

ها هى شمس يولية ، ولكن هذا الصيف الذى طالما انتظره مجنون ليلى عاد ولم تعد ليلى :

**ونبأتمانى أن تميـاء منزل**
**لليلى اذا ما الصيف ألقى المراسيا**
**فهذى شهور الصيف عنا قد انقضت**
**فما للنوى ترمى بليلى المراويا**

ليست هذه « قرطبة » حلم السنين المنتهى ، انها « كوردبا » الأسبانية ، غانية أوروبية متألقة وكل المدن سواء – •• تتعاظم العمارات الشواهق والسوبر ماركت والسيارات وتتضاءل روح الانسان الذى رفعها •• قوة العلم والحضارة تواجه ضعف النفس حين يكون الفرد هو القطب وتذوب الجماعة الا يوم تنتظم حبات عقد الغرماء فى سوق الأوراق المالية ، ويدور الكمبيوتر لاحصاء أرباحهم منتصرين وخسائرنا منهزمين فى لعبة عالم الشمال وعالم الجنوب ، أو يوم تنتظم فى فوضى حلبة مصارعة الثيران « تورو تورو » ، أو فى علب الليل ومراقص « الفلامنكو » •

يعب الفرد كؤوس الزهو والمرح وبهجة الحياة حتى الثمالة •• تتدافع الدماء الحارة فى العروق وينطفىء وهج العلاقات الانسانية• ما أروع الحياة للمنعمين ، والويل للشاردين والمسحوقين تحت أقدام الوحش الكاسر المخضوب الأظافر بأحدث منتجات التجميل فى السركات المتعددة الجنسيات • ياللنعومة الجارحة حتى العظم والضوء المتوهج حتى احتراقنا • تطفح الوجوه حولنا بالبشر •• الآن وبعدنا الطوفان•• يومنا هذا هو المبتدأ والخبر ، هو الافتتاح والخاتمة •• لا صحو اليوم ولا صحو غدا •• نحن ركاب المحطة

الأخيرة .. تلك شعارات الأقدام العجلى اللاهثة فى وسط المدينة .. لكن حواشيها تنساب تحت الخطوات الصغيرة المتوثبة الحالمة خضرة ورياحين وورودا فى وجنات الاطفال والخطوات الوانية لرفقاء العمر المولى والزمن العديم . وجهان يلتقيان ويفترقان بين القلب والحواشى .

مازلنا نحن الى اغفاءة خدر ، هنيهات قصيرة فى عبق التاريخ .. فجأة تلفح وجوهنا .. عيوننا وقلوبنا ريح من الماضى حين استقبلنا واستقبلتنا اطلال مازالت تحمل روح النسموخ من بعيد .. هذه قرطبة العربية .. خطوط رفيعة متعرجة على كف لا تبحث عن قارىء الحظوظ ، فغرامها رنين « البيزتا » البرنزية والفضية فى أيدينا .. أيدى السواح الباحثين عن متعة من الماضى حين عزت عليهم مسرات الحاضر البائس . تتحدر بنا وتتلوى دروب قرطبة العربية حين بلغناها ، فنتذكر حى القصبة فى تونس والجزائر فى خان الخليلى فى مصر ، طراز معمارى واحد .. ولكن غبار التاريخ ينجلى عن « مشربيات » قرطبة وتعود اليها أصص الزهور كما كانت منذ القرن الثامن الميلادى واستمرت مئات السنين .. والتاجر الأوروبى اذا جرى بينك وبينه حوار يعرف كيف يستل منك راضيا ما أعددت من متاع للرحلة ولو كان متاعا قليلا .. دراهم معدودة .. « فالبوتيكات » السياحية تضىء ملامح البلى على وجه قرطبة القديمة ، وتتحول « ولادة » الأوروبية الى بائعة معطرة حاذقة بفن الابهار .

البيت الشرقى الذى يتوسطه فناء وتتوسط الفناء نافورة ولم يفسد تجديده أو اعادة بنائه هندسته العربية

بل زادها نضارة وبهاء . كل حجر أو منفذ كما كان بالأمس .. والحجارة وحدها عبر الأبواب والابهاء والنوافذ والأسقف هى التى

تتكلم لغة ابن زيدون وابن رشد فيلسوف قرطبة . ولولا حوارنا معها لاشتدت غربتنا كما اغترب المتنبى فى شعب بوان فى فارس القديمة . هذه الحجارة شاهدة الأمس وشاهدة اليوم ، فهى لم تنس بعد لغتها — وقد أعادتها الشيخوخة الى طفولة — لأنها ذاكرة التاريخ التى لا تصدأ . شاهدة علينا لأن المستلبين منا بالغرب يزهدون فى لغة قومهم فيهجرونها حتى تبلى على ألسنتهم بمر السنين عجمة وأعوجاجا .

الأسبان متعصبون للغتهم .. عرفنا ذلك من قبل فى ايطاليا .. ليس هذا تعصبا فاللغة هى هوية الشعب ونتحدث الى أحدهم بالفرنسية أو الانكليزية فيدعى الجهل ، الا اذا كنت فى مكتب ارشاد سياحى ، وتدرك من ملامحه أنه يعرف ، فكأنه سفير للغته ولحضارتها .

انه الاحساس بالانتماء الوطنى أو القومى . وربما يكون تاجرا ويؤثر أن يضحى بالصفقة لغفم الاتصال ولا يتهاون فى المبدأ . ومن يدرى فربما يعود ذلك الى أن الأوروبيين لا يعرفون أسلوب التبادل فى معاملاتهم معنا ، فهم الذين يصدرون ونحن المستوردون ، قسمة عادلة أبدية ! فلا ينبغى أن ينقلب الهرم الذى دام أحقابا طوالا رأسا على عقب ، وهم لا يعتنقون نظرية المثلث المتساوى الأضلاع !! ولا يدينون بغير مبدأ الثوابت فلا جدال !!

لمحنا — ويا للمفاجأة — عبارة عربية على مبنى .. لم يكن الحجر هو الذى يتحدث بلغة فرسان بنى أمية وعلمائها هذه المرة ، ولكنها هى التى فرضت نفسها على قرطبة الأسبانية فى حيها القديم ، كما فرضت عيون الصبايا الأندلسيات حورها واتساعها على عيون بنات القوط .. « مركز ابن حزم » هكذا على واجهة

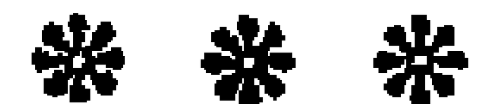
أيبرية يسطع حرف عربى . هذا أنت أيها الشاعر المؤرخ والأديب المتحضر الجسور تعود الينا كلما رجعنا الى كتابك البهيج « طوق الحمامة » ، انحدرت من أصل مسيحى واعتنقت الاسلام ، ومن السماحة الى الحق والعدل تعمقت انسانيتك . وتعود الينا اليوم — على غير موعد — لتؤنسـنا أو لنـأتنس بك بين كتابك « الملل والأهواء والنحل » الذى يعتبر أول تاريخ مقارن للأديان وبين فقه الجمال والحب فى « طوق الحمامة » ، ومن أين انبثقت كل هذه الينابيع الفكرية والأدبية لتقدم هذا العطاء الزاخر لا تشغلك عنه مناصب الوزارة والرياسة ؟

لست فى حاجة أيها العالم الخالد الى أن يصبوك فى نصب حجرى بمدينتك ، وأنت المرفوع الهامة على أعظم ما شاده الانسان من عروش ، أنت الشهاب الوضـاء فى ظلمات أوربـا فى العصور الوسطى . كفك لم تعانق على صفحة صخرية مثـل ابن زيدون عيوننا ، ولكنها مازالت مبسوطـة — بعد رحيلك — تمدنا بزاد الحكمة الذى طالما وسع الناس جميعا فى حياتك . كم كنت كريما وحكيما أيها القلب الكبير . هـا أنت تفتح لنـا — نحن الذين أوصدت فى وجوهنا أبواب « طيبة » مدينتنا .. كل المغاليق ، موكب مهيب حافل يمر كالأمواج على بحر الذاكرة . فنحن فى قرطبـة التى أنجبت وأظلت مئـات الأدبـاء والعلماء فى عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، وأخرجت الآلاف من ذخائر العلم .

ذهب الناصر والمستنصر ، وذهبت أنت ومجنون ولادة وابن شهيد وزراء ، وخلدتم كتابا بلغاء أو شـعراء مبـدعين . أبحث بلا طائل عن أثر لابن قرطبة البار ابن شهيد ، وابن عبد ربه الذى طالما أطرب شعره المتنبى حتى سماه « مليح الأندلس » . وكأنما ود أبو الطيب لو كان عاشقا متيما مثلك يا مبدع « العقد الفريد »،

فيرق قصيده الذى أعجز معاصريه بجبروت صياغته وقوة فكره الثاقب كما رق شعرك ، فكان يغنى لك فى خلوته الموحشة وقد ألقى خلفه قناع الصرامة والكبرياء ، واستخفه النغم الرقراق هو الذى كتب عليه صراع الشقاء :

أيها البدر الذى ضن علينا بالطلوع
ابغ لى عنـرك قلبا طار من بين ضلوعى
يابديع الحسن كم لى فيك من وجه بديع



# أصداء عصرية من قرطبة القديمة(٣)

- حرف عربي فى التيه الايبيرى !!
- رواسب قوطية قديمة تغذيها رقطاء منسلة .
- أى الحضارات أكثر انسانية ؟ هذا هو السؤال ! .
- الأعمدة الرومانية والأعمدة العربية فى القيروان .

ما كان لنا أن نقترب من أسرار قرطبة عاصمة الدولة الأموية فى الأندلس فى القرن الثامن الميلادى ، ومدينة ابن رشد وابن حزم لولا تلك المصادفة المسعدة التى قادت خطانا الى ( المركز الثقافى العربى القرطبى ـ ابن حزم ) الذى يحمل لافتة عربية ... مسنا نسيم روحى من فرط النشوة أنعشنا ، ونفضت أقدامنا غبار التعب من طول ما مشينا فى حى قرطبة المسحور الذى يعود بنا القهقرى بعيدا بعيدا مثل بعد واقعنا عن حقوق الأحرار والمضطهدين من أهلنا فى فلسطين ولبنان وفى عالمنا الثالث الأخير . كان المركز

لسوء الحظ موصدا بابه ٠ وكنا على أهبة الرحيل الى بلدة أخرى أندلسية بعد أن أمضينا ليلة فى قرطبة ٠ ولكن قرطبة تستحق ليلة أخرى بعد أن عثرنا على مفتاحها ، مركزها الثقافى ، فقد نجد فيه وجها عربيا يرشدنا ويتحاور معنا ٠

تحققت المشيئة فى اليوم العاشر من يولية اذ وجدنا فى مركز ابن حزم وقد فتحت أبوابه من يستقبلنا ٠٠٠ سيدة جميلة مولدة فالأب مغربى من طنجة والأم أسبانية كما قدمت لنا نفسها بعد أن عرفناها بنا ٠٠٠ بادرتنا بالتحية والتهنئة ( كل عام وأنتم بخير ) ، اذ كان اليوم عيد الفطر فى مصر والمغرب ووقفته فى الجزائر من حيث قدمنا ٠ سألنا : من يدير المركز فانا فى حاجة الى نشرات وكتب وحوار ؟ وتبادلت حديثا هاتفيا مع الدكتور أحمد الشبلى الذى يسكن فى الطابق الثانى من مبنى المركز ٠

وحين علم أننا معجلون ولا وقت لدينا لقضاء ليلة ثالثة فى قرطبة حتى نعود اليه فى الغد ليفرغ لصحبتنا ، استجاب للرجاء ٠ وتعارفنا ٠٠ شباب مثقف من الأردن تخرج فى احدى الجامعات الأسبانية طبيبا ، ذو حس عربى أصيل غيور على الحضارة العربية الاسلامية دارس لها ٠ لذلك أسندت اليه بلدية قرطبة أمر هذا المركز بعد أن خصصت له البناية الصغيرة التى يشغلها الآن ٠٠ سألته عن الدعم الذى يتلقاه المركز من الدول العربية ومنظمة التربية والثقافة ( اليونسكو ) بالجامعة العربية ٠ أسفت اذ أخبرنى أن الأمر كله يقوم على ما يبذله من جهد فردى تعينه عليه علاقاته الحميدة بالبلدية ، نظرا لطول اقامته فى أسبانيا ومن ثم اتقانه لغتها ومصاهرته أهلها ، فالزوجة أسبانية والولد اسمه على ٠

مازال المركز فى طور التكوين منتظرا الكثير ليحقق رسالته فى مجال احياء التراث الأندلسى فى قرطبة ، فاليد الواحدة

لا نصفق • ونشعر بشيء من المرارة في صوت محدثنا لما آل اليه اهمالنا هذا التراث وعدم التعريف بدور العرب والمسلمين في العصور الوسطى في مختلف ميادين الحضارة الانسانية ، وأثرهم في نشأة عصر النهضة في أوربا • وقد أدى هذا الاهمال الى استشراء نزعة التحقير من شأن كل ما يتصل بالعرب في نفوس بعض أبناء الجيل الأسباني الجديد ، اذ أضيف الى الرواسب التاريخية التي خلفها الصراع الدموي الطويل بين العرب في الأندلس وفي المغرب العربي ـ وكانا وحدة متكاملة ـ وبين الكاثوليك القوطيين المتعصبين ، مؤامرات الصهيونيين النازنيين الجدد ، وافك بعض المستشرقين والهزائم العربية المتوالية الآن ، وتصرفات بعض السائحين الأغنياء من العرب • فأصبح بعض الأسبان ممن ينحدرون من أصول عربية يخجلون من هذا الانتماء ، اذ وقر في أذهانهم ووجدانهم أن العروبة مرادفة للهمجية والتخلف وينفي هؤلاء ما يعدونه وصمة لهم مشيرين الى وجوههم وشعورهم الشقر ، على الرغم مما هو ثابت تاريخيا من أن بعض القوط قد دخلوا في الاسلام بعد فتح الأندلس •

وصدق المثل العربي القديم « رمتني بدائها وانسلت » فما عرف التاريخ القديم همجية مثل بربرية الرومان ، لقد كانوا قوما غزاة قساة غلاظ الأكباد معادين للحضارة الانسانية ، على نقيض في ذلك مع العرب والمسلمين • كانوا ـ والحديث لمدير مركز قرطبة في شأن الرومان ـ يدمرون البلدان بعد غزوها ويمحقون حضاراتها تحت سنابك جيادهم • وافقته وتحفظت موضوعيا بشأن نفيه الحضارة مطلقة عن الرومان ، فقد كان لهم فضل في ابداع القاعدة القانونية ، والقانون علم من العلوم الانسانية ، ولندع جانبا اسهامهم في جوانب أخرى • فلكل حضارة ميزاتها وعيوبها ، جوانبها المضيئة وجوانبها السلبية لأن الحضارة من صنع البشر ، وكل ابن آدم

خطاء كما قال الرسول عليه السلام · ولكن السؤال الواجب طرحه هو : أى كفتى الميزان أرجح ؟ وبعبارة أخرى : أى الحضارات أكثر انسانية ؟ هذا هو الفيصل فى التقييم · أما محو الأقوام المنتصرين آثار من سبقوهم وحضارة المغلوبين فهو سنة تاريخية معروفة فى عصور البشرية الأولى حتى العصر الوسيط ·

أما اليوم فقد نضجت البشرية ، فأصبح ما كان شريعة بالأمس فى الحروب محرما فى العصر الحديث · ومن هنـــا كانت ادانة الفاشية والنازية والصهيونية وسائر أشكال العنصرية · فلا ينبغى أن نحكم على الماضى بمقياس الحاضر ، مغفلين الحقيقة الأولى من حقائق المسيرة البشرية وهى التطور من خلال الصراع · ولا ينبغى لنا أيضا أن نهمل جانب الحوار بين الحضارات وتزاوجها · فقد اقتبس المسلمون الأوائل من نظم اليونان والروم والفرس والهند ومن أساليبهم وعلومهم ما ينفعهم فى التقدم ولا يتنافى مع المبادىء الاســـلامية ، وتمثلوا ما نقلوه ثم أضـــافوا اليه فى ابداعهم · ولو كانت كلها شرا لنبذوها · والمستنيرون منا يدعون اليوم الى احياء ذلك التقليد المحمود ، فالاسلام دعوة سلام ووئام وتعاون بين الناس جميعا ، ولا حرب الا على المعتدين ·

أردت أن أناوش هذا الطبيب الرائع فى أصالته حتى نكسبه مدافعا صلبا عن الحضارة العربية الاسلامية طبقا للمنهج العلمى الموضوعى فالمبالغــة تضر أكثر مما تفيــد ، وقد تصــل بنــا الى « الشوفينيـــة » الضيقــة، فى حين أن عظمة قوميتنـــا أنها متفتحة وانسانية، فلا فضل لعربى على غيره الا بالتقوى والعلم ، ولنا ما لهم وعليهم ما علينا · قلت ان فى المسلمين أيضا من حولوا الكنائس الى مساجد بعد انتصارهم فى الحرب مثلما حول خصومهم المساجد الى كنائس بعد غلبتهم · وتلك حقيقة تاريخية مسلمة · وهى لا تغض

من قدرنا . فالأولى بنا ألا ننكرها ، وانما نعترف أن تلك الممارسات منافية لجوهر الاسلام وتعاليمه التى أكدها النبى عليه السلام فى وصيته للصحابة قبل خروجهم للفتوحات الاسلامية : أن يتجنبوا هدم الكنائس والأديرة والبيع لأنها أماكن عبادة لأصحاب كتاب من النصارى أو اليهود ، وأكد الوصية عمر العظيم فى واقعة صلاته المشهورة فى بيت المقدس بعد فتح المدينة العريقة . انه لا يمس عظمة الاسلام والمسلمين الحقيقيين انحراف بعض تابعيه عن مبادئه . فلا يؤخذ الصالح بذنب الطالح . ( ولا تزر وازرة وزر أخرى ) . ومن هذا المنطلق يجدر بنا أن نفرق بين المبدأ والممارسة .

وأضفت ـ لعلنى أفيد من معلومات الدكتور الشبلى مدير مركز قرطبة الثقافى ـ أننى شاهدت أعمدة رومانية فى بعض المساجد ، يظهر ذلك جليا فى مسجد عقبة بن نافع الصحابى الفاتح الجليل فى القيروان ، اذ تختلف بعض الأعمدة عن بعضها الآخر فى الطراز الفنى المعمارى ، مما يدل على انتمائها الى عصور مختلفة وأقوام مختلفين . عمود ذو طابع عربى اســـلامى يجاوره آخر ذو طابع رومانى .. انه توارث الحضارات . كما أن الحرب هى الحرب « وما الحرب الا ما علمتم وذقتم » كما يقول زهير بن أبى سلمى ، فلا مفر من أن تنتج تدميرا وتشويها . فاذا دارت معركة داخل مبنى اعتصم به الخصم فان من الطبيعى ألا ينجو من الخراب سواء أكان قلعة أو بيتا للعبادة أو دار علم أو مسرحا أو ملعبا . فنحن بشر يعيشون على الأرض لا ملائكة سماوية .

ولا شك أن هذا ما وقع فى الفتح الاسلامى للشمال الأفريقى . لقد سقطت أعمدة رومانية فانتفع بها المسلمون فى بناء المساجد ، لأن الحجر هو الحجر لا قداسة له ، وانما القداسة لمكان العبادة الذى بنى به . ولولا ذلك ما قال الخليفة العادل عمر بن الخطاب

ـ كما أثر عنه ـ وهو يقوم بشعائر الحج ومنها لثم الحجر الأسود : « ما أنت الا حجر ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » . أو قال عبارة أخرى تؤدى هذا المعنى .

غير أن محدثنا كان لديه رأى آخر يقع منه موقع اليقين . فالأعمدة التى أقيم عليهـا مسجد عقبة كلها فيما يرى من طراز عربى ، وليس ثمة مثيل لتيجانهـا فى الشـكل فى أية بقعة على المعمورة . وما روجه بعض الأجانب مخالفا لذلك هو محض افتراء ، حيث ينهى الدين الاسلامى عن أخذ مال الغير ، كما أن العرف الاسـلامى يتطير من اسـتخدام بقايا البيوت والأماكن المهجورة والانتفاع بها .

# أصداء عصرية من قرطبة القديمة (٤)

- كرنفال سياحي حول البيت الأسطوري !!
- حتى ابن رشد وابن ميمون يفرقون بينهما اليوم •
- محنة فيلسوف قرطبة بين حرية الرأى وبين المنفى •
- هبك تهيأت لذلك الدست ، ما تصنع فى قصة السبت ؟
- ما أقرب اليوم إلى البارحة !!

لم يسلم الحى العربى الوحيد الباقى فى قرطبة ـ كأنما يشهد العالم أن ها هنا كانت حضارة انسانية زاهرة ـ من ملاحقة الصهيونيين للآثار العربية طمسا وتزييفا ، ولسان حالها يقول مع المتنبى : « حتى على الموت لا أخلو من الحسد » • تراهم يخشون أن ينتفض طائر الفينيق من رماده ويبعث من جديد ؟فهم يطاردونه ليدركوه أينما كان فى المشرق أو فى المغرب كأنهم الطاعون ؟ هكذا وجدت الشيطان حولى من حيث لم أحتسب :

سد شـــيطان حقده كل فج ان شـــيطان حقده لمريد !

عن يمينى وعن شمالى وقدا مى وخلفى، فكيف عنه أحيد ؟

ومعذرة يابن الرومى ، يا رفيق الشـــعر والاغتراب ، اذا استبدلت بشيطان حبك « وحيدا » شيطان الحقد الصهيونى على الانســـان .. على الحضارة والتاريخ والمستقبل . وجدته فجأة يسألنى بلغة عربية سليمة : « من أين قدمت ؟ » كان وجهه يحمل سمات شرقية خادعتنى للوهلة الأولى لولا اشارة خفية من الصديق الشبلى الذى كان يبادله الحديث . ولم يكن وحده اذ كان يصحب فوجا صغيرا من السائحين فى طريقهم الى « المعبد اليهودى » بقرطبة القديمة !!

من أقصى الأرض ومن أدناها يجيئون طوال العام بحثا عن هذا المعبد فى الحى العربى الأندلسى ، فيجدون من يستقبلهم ويرشدهم . أما نحن فلولا المصادفة المبحتة لعدنا من حيث أتينا دون أن نلتقى بالظاهرة الصهيونية مجسدة أمامنا . رافقنا الصـــديق الى الكنز اليهودى المنشود ، بيت عربى مثل عشرات البيوت فى ذلك الحى ، وكان مغلقـــا . ســـألنا : فأين المعبد ؟ وكانت الاجابة : « هوذا ما يدعون » . ففى الداخل غرفة لا تختلف بالمثل عن أية غرفة فى أى بيت .. يقولون ان صاحب الدار كان يهوديا ، وكان يتخذ منها محلا لأداء الطقوس الدينية ، فاتخذوها بعده مزارا مقدسا يحجون اليه من كل مكان ، ليثبت أفاكو الحركة العنصرية الصهيونية أن لهم تراثا قديما وأمجادا تمتد من المشرق الى المغرب ، وتقع فى عقر دار التاريخ العربى الأندلسى . ومن خلل الباب الموصد تسللت منا العيون بحثا عن أثر نسجوا منه أسطورتهم ، ولكن عبثا كانت المحاولة .

الى هذا المعبد الوهمى تتقاطر وفودهم لا تقصد فى قرطبة كلها غيره ، فجولتهم تبدأ منه وتنتهى عنده ، ولا يفوتهم أن يلقوا نظرة على تمثال ابن ميمون ويتحلقوا حـوله مزهوين لالتقاط صـور تذكارية ، مشيحين عن تمثال آخر غير بعيد عنه يخلد ذكرى ابن رشد ، متجاهلين الحقيقة ، فكلاهما عالم وفيلسوف أندلسى وان كان البون بينهما شاسعا فى المكانة العلمية • فمازال يعقد فى عصرنا المؤتمر بعد المؤتمر لدراسة فكر ابن رشد وانتاجه وأثره فى حضارة أوربا فى عصر النهضة • ويكفى انه أحيى فلسفة أرسطو وشرحها حتى أطلق عليه [ الشارح ] ، ثم اختط له فكرا مستقلا ومنهجا خاصا استخدمه فى البحث حتى وصل الى نتائج أثرت رصيد المعرفة الانسانية • ويكفى أيضـا أن من أكثر الفلاسفة تأثرا به توما الأكوينى وروجرز باكـون رائد المدرسـة التجريبية التى تممهـا فرانسيس باكون ، وكانت كتبه المترجمة مفروضة على طلاب جامعات بولون وباريس •

ولم يكن هنالك اوربى متثقف فى القرن الثالث عشر الميلادى لا يعرف ولا يدرس ابن رشد • وقد كانت فلسفته أساس مدرستين غربيتين لهما شأنهما وهما مدرسة الحقيقيين ومدرسة الاسميين • وهو لم يكن فيلسوفا فحسب بل كان عالما موسوعيا • درس الكلام والفقه والشـعر والطب والرياضـيات والفلك ، وتولى منصب القضاء • واشتهر بكتابيه ( فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ) و ( تهافت التهافت ) فى الدفاع عن الفلسفة ردا على الغزالى• وما زالت قضايا علم النفس والوجودية تحوى بذورا من فكر ابن رشد ، وتنقسم الآراء حوله بين مؤيد ومخالف يجمع بينهما احترامه وتقديره •

ولم يكن الفكر العبقرى وحده ميزته ، وانما السلوك القائم على الشجاعة فى ابداء الرأى لا يخشى فيه بطش حاكم ولا مؤامرة

حاقد . ومن ثم كانت محنته ـ شأن غيره من رواد حرية الفكر الكبار في التاريخ ـ اذ انقلب عليه الخليفة أبو يوسف يعقوب المشهور بالمنصور سنة ١١٩٥ م . وعقد له محاكمة صورية بمدينة قرطبة لأسباب اختلف في شأنها المؤرخون ، وربما كان أصحها ما ساء الخليفة من ترفع ابن رشد وامتناعه عن تقديم فروض الولاء والطاعة له . فأحرقت كتبه حتى لم يبق منها الا القليل ، وأبعد منفياً الى قرية تسمى البشانة ( لوسينا ) بجوار قرطبة على أن يلزمها ولا يبرحها . وقد بلغ من سموحسه الانساني أنه كان يؤثر الرحمة على العدل ، اذ يروى عنه أنه كان في قضائه يتحرج من الحكم بالموت . فاذا وجب الحكم به أحاله الى نوابه ليحكموا فيه ، رغم أنه جمع قضاء الأندلس والمغرب معا وهو دون الخامسة والثلاثين من العمر .

فماذا عن ابن ميمون الذى يؤثره أبناء الأفاعى بالزيارة . انه أحد تلاميذ ابن رشد الذين ترجموا فلسفته . وتعرفه المعاجم بأنه أبو عمران موسى ، ولد في قرطبة ودفن حسب رغبته في طبرية بفلسطين . وقد هجر الأندلس وأقام بالقاهرة حيث انصرف الى ممارسة الطب فاشتهر حتى أصبح طبيب صلاح الدين الأيوبى . له عدة مؤلفات طبية ودينية ، منها ( دلالة الحائرين ) ، وكان له أثر عند مفكرى القرون الوسطى في الغرب . وقفت أتأمل تمثاله ، وربما شاءت هواية ابنى التصوير أن يلتقط لى هذه اللحظة للذكرى .

وفاجأني الصديق النبيل : ( سوف يحسبونك الآن يهوديا ) . تلك هى المسألة اذن .. فلولا أن هذا المفكر كان يهوديا وربما لأنه أوصى أن يدفن في طبرية لما كانت كل هذه الحفاوة . لقد أسلم الرجل ، ولكنهم مع ذلك يعدونه من أقطابهم ، لتتباهى به الصهيونية . هؤلاء الأبناء الذين يؤثرون ابن ميمون يعرفون أننا

نفرق بين اليهودية وبين الصهيونية ، وأن التاريخ يشهد أن اليهود لم يأنسوا فى ظل أى سلطة مثلما كانوا فى عصر الدول الاسلامية مشرقا ومغربا حيث كانت تتعايش كل الأديان . فما عرف العرب والمسلمون التعصب الا اذا أكرهوا على اتخاذ موقف العداء للدفاع عن كيانهم بعد عدوان .

وتحت أفياء هذا التسامح نبغ ابن ميمون فى قرطبة وفى القاهرة ، كما نبغ غيره من اليهود وولوا أعلى المناصب لأن العلم لا وطن له ، فالعالم أيا كانت ديانته هو ذخر للانسانية طالما استخدم مواهبه فى الرقى بها .

ومثل ابن ميمون عديد من المثقفين اليهـــود الذين اعتنقوا الاسلام فى الاندلس ، كالشاعر ابن سهل الأشبيلى الذى أسلم وقرأ القرآن ، وقد اشتهر بغزله الرقيق وتصويره للطبيعة وما نظمه من موشحات بديعة . ومنهم من تفقه فى الشريعة الاسلامية وتطلع الى القضاء بلا حرج ولا مظنة سوء كما تدل على ذلك رسالة نثرية كتبها الوزير الكاتب أبو المطرف بن الدباغ الى أبى الفضل بن حسداى وكان يهوديا فأسلم يعاتبه ويداعبه . ( جعلت فداك ، ما الذى عراك ؟ ولعلك رأيت الحضرة قد خلت من قاض فطمعت فى القضاء ، وجعلت تأخذ نفسك بأهبته ، وتترشح لرتبته ، وأنت الآن لا شك تتفقه فى الأحكام ، وتتطلع شريعة الاسلام . وهبك تحليت بهذا السمت ، وتهيأت لذلك الدست ، ما تصنع فى قصة السبت ؟! دع هذا التخلق !! ) .

يقول محدثنا فى مرارة : كان بضعة أفراد من اليهود يسكنون فى هــذا الشـــارع الضيق الذى نســـير فيه الآن بالحى القرطبى العريق .. قطرات فى محيط عربى . وها أنتـــذا ترى اســـمه « جوديوس » أى « حارة اليهود » كما أطلقت عليه البلدية خضوعا للنفوذ الاسرائيلى على حساب الحقائق التاريخية .

هم على وشك ان يبتلعوا المنطقة كلها ، وأن يخلعوا عليها صبغة علمية ثقافية يهودية ، رغم أن كل حجر فيها يشهد أنها عربية . يتلقفون السائحين بمجرد أن تطأ أقدامهم أرض قرطبة ، ويمرون بهم في شارع العلامة العربى أبى القاسم الزهراوى أعظم جراح في عصره ومن أكبر المؤلفين الذين كانت كتبهم تدرس في أوربا ، عبر الساحات الأندلسية والبيوت العربية الأنيقة ، زاعمين أنها يهودية ، كما يفعلون الآن في القدس وفي غيرها من مواقع التراث العربى الفلسطيني تشويها لأصالتها وانتحالا زائفا لها حتى أن مضيفات طيران شركة العال الاسرائيلية يرتدين الزى الفلسطيني . فلم يكن ثمة حارة لليهود في قرطبة وان كان الأستاذ عبد العزيز سالم مدير المركز الاسلامى الأسبانى قد أثبت ذلك في كتابه ، وهو خطأ تاريخي . والصهيونيون ينسبون لليهود كل معلم تاريخي أو جغرافى في المدينة ادعاء منهم أن لهم تراثا في كل مكان . ومن ذلك أنهم أطلقوا اسم خودرية ( امرأة يهودية ) على الشارع الموصل الى جامع قرطبة الكبير . وقد كانت منطقة القصبة المسورة والمساكن خارجها تضم جميع السكان مسلمين وهم الأغلبية ومسيحيين ويهودا دون تقسيم .

# أصداء عصرية من قرطبة القديمة (٥)

- **عبق التاريخ يغمر كل ما تقـع عليه العين ويمثله هذا التراث الحى .**
- **النموذج الأمثل للحضارة العربية الاسلامية فى العصر الوسيط .**
- **الآباء يمضغون الحجر والأبناء يضرسون !!**
- **الجيل الجديد فى الأندلس ينظر خلفه فى غضب .**
- **« قلبى يحترق كلما شهدت جامع قرطبة فى وضعه الراهن » .**
- **حامى حمى قرطبة عاصمة عبد الرحمن الناصر .**

كل ما نقع العين عليه هنا عربى اســـلامى ، فقرطبه تحفة التراث الأندلسي ، هذا التراث الحى الذى تلمسه بيدك وتشمه عبر التاريخ حولك . أما فى المشرق فنحن نجهل هذا الواقع ، فنقول : كان لنا آثار ، ولم يبق منه الا كلمة أندلس ، أى بقى لنا الاسم فقط . والأندلس هى النموذج الأمثل للحضارة العربية الاسلامية

فى أوج ازدهارها وفى أقصى ما بلغته فتوحها من آفاق منذ انطلقت موجاتها شرقا وغربا · فقد سيطر العرب على معظم شبه الجزيرة الأيبيرية ، وأقاموا دويلة على الحدود الفرنسية الألمانية ، والموقف الذى دارت فيه الحرب التى سميت مذبحة بلاط الشهداء « بارتلمى » والتى خسرها العرب واستشهد فيها منهم الآلاف ليس بعيدا جدا عن باريس · ثم توالت هزائمهم بسبب الفرقة وتحالف بعض السلاطين مع ملوك أوربا ضد بعضهم ، وتقاتل أبناء الأسرة الحاكمة ، ومؤامرات القصور ودسائس الحاشية ، ولا سيما فى عصر ملوك الطوائف ، حتى استقل كل حاكم بمدينة ، وتوالى انهيار هذه الممالك المدن واحدة بعد الأخرى ، ولم يبق سوى غرناطة آخر معقل عربى · وما لبثت أن سقطت فى عصر أميرها عبد الله الصغير الذى قال فيه شاعر أندلسى ـ بعد هوانه على العدو وتسليمه أبهى المدن غنيمة باردة ثم بكائه عليها ـ ذلك البيت المشهور :

ابك مثل النساء ملكا مضاعا

لم تحافظ عليه مثل الرجال

تتداعى الخواطر لا حزنا على الأمس ، فالماضى لا يعود · وما كان فى القرون الوسطى يستحيل أن يتكرر ، والذى حدث من حروب هو حلقة من حلقات الصراع ومرحلة من التطور التاريخى ، وللأوربيين أوطانهم كما للعرب أوطانهم ، فقد انتهى عصر الامبراطوريات بانتهاء القرون الوسطى وخلفه عصر القوميات · فلا بكاء على ضياع الأندلس ، بل نستوحيها العبر ، وانما الأسى على المضيع من وطننا ، والذى لن نسترده باجترار أمجاد السلف وبكائيات الأطلال واستدرار الدمع واستجداء الشفقة ، وهذا القول موجه لشعراء الفردوس المفقود الذين هم فى كل واد يهيمون دون أن يروا مواقع أقدامهم التى تغوص تحتهم ·

أدركتنا الكآبة على أبوابه ، اذ كانت الكلاب تمرح في ساحته مع الأطفال . ولما دخلناه وجدنا أن معظمه قد تحول الى كنيسة . وأما الجزء الذى نجا من الطمس ، فأبقى على أعمدته ، فلا يصلح لمن يريد الصلاة ، اذ يتجول فيه السائحون بأحذيتهم ، ويلهو الأطفال بالمياه المنبثقة من صنابير الحوض الكبير الذى يتوسط الساحة .

ولكنها الحروب الدينية وما تخلفه من احن وأحقاد تميت أجمل ما فى الانسان من قيم وتثير أبشع الغرائز الوحشية . ويمضى الزمن وتتعاقب الأجيال لترث رواسب البغضاء التى يعمل الأشرار المتعصبون على تأريث رمادها كلما خبت ناره . ولكن هنالك فى نفس الوقت أخيارا متحضرين يقاومون تلك النزعة المعادية ، ويبثون روح الاخاء والتعاون البشرى وتربية الحس الحضارى . ومن ثم نجد اليوم شبابا من الجيل الأسبانى الجديد ينظرون بشيء من الخجل المشوب بالأسى لما صنعته الأيدى الملوثة بدم التخريب ، ويدعو بعضهم الى الحفاظ على مآثر الحضارة العربية بالأندلس باعتبارها تراثا عالميا ، يشهد بعبقرية البشر لا تفريق بين قوم وآخرين ، لأن الحضارة لا يبنيها شعب أو أمة واحدة ، وانما هى ابداع مشترك لكل نصيب منه . وتتصدر منظمة اليونسكو الدولية الهيئات الراعية لهذا التيار ، وهى تعمل على تعميق وعى الأفراد والجماعات وحثهم على تبنى دعوتها الى المحافظة على التراث الانسانى ، وان كانت جهودها غدت اليوم مهددة بالانقراض أو الفناء بعد قرار أغنى دولة فى العالم وهى الولايات المتحدة الأمريكية بوقف عونها الحالى عنها جزاء وفاقا لها على تمردها — فيما أصدرت من قرارات أو توصيات — على ربقة النعم .

ويحدثنا مدير مركز ابن حزم الثقافى عن الجهد الكبير الذى بذلته بعض الدول العربية فى سبيل اعادة جامع قرطبة الى بعض ما كان عليه من رواء ورونق واعداده للصلاة ، وعن اتصالاته مع أسقف الكاتدرائية ( يسمى الجامع الآن فى كتب الأسبان ومنشوراتهم موسكى كاتدرائية ) للموافقة على تخصيص منطقة المحراب للصلاة، ذلك لأن هذا الجامع التاريخى الكبير من ممتلكات الكنيسة وان كانت الدولة تحاول نقل ملكيته اليها فى الوقت الحاضر ، وكذلك محاولة استرداد مسجد فرانكو ليقيموا به الصلاة وتلك معلومة أخرى لها دلالتها ومعقباتها ٠

كل أثر هنا قد أدركته موجة الصراع والحقد ، كأنما كانوا يخشون أن تتلبس أرواح العرب الأندلسيين الراحلين تلك الآثار فترتد فرسانا يحاربونهم من جديد ، فمازالت فى بعض البيوت صحف ومنشورات تحمل شعارات : لا لهؤلاء الراحلين وذريتهم وعقيدتهم ونعم لمن قاتلوهم ، وكأن الانسانية لم تشب بعد عن الطوق، ولم تقطع أشواطا فى سبيل ارساء قواعد التعايش العلمى والحضارى بين أصحاب العقائد المختلفة ، أو كأن العنصرية عنكبوت على كل جدار ٠ « قلبى يحترق كلما شاهدت جامع قرطبة فى وضعه الراهن ولا قدرة لى على فعل ما ينبغى حياله » تلك هى الكلمات التى تفوه بها محدثنا بل صرخته الصادرة من الأعماق كالجرح الدفين ٠

فى طريقنا شاهدنا تمثالا سامقا بديعا يخلد رفائيل القائد الحربى الذى خلعوا عليه وصف البطل والقديس ٠ واعتبروه حامى حمى قرطبة، ناسجين حوله الأساطير ، فضربة واحدة من سيفه كانت تطيح برقبة ألف من الأعداء في عاصمة العلم والنور والتسامح الدينى ، مدينة عبد الرحمن الناصر وخلفائه ، مدينة

عباقرة الفكر الانسانى والشعر والحب فى العصر الوسيط • ولم أعرف عمق آهة القلب المحترق حزنا على ما آل مسجد قرطبة حتى ضمتنا ساحته الداخلية • كم كان رائعا ومهيبا مشهد أعمدته الشامخة المتناسقة حتى ليعجز عنها الوصف ، وهى تفجر فى نفوسنا ذلك الحزن الغامض الذى صورته ابنتى منار فى قصتها ( الأعمدة ) معبرة عن وعى الجيل الجديد بتاريخ الهزائم العربية . وهى تسخر حينا وتأسى حينا آخر للسائح العربى الثرى بطل القصة :

[ أوصد مسام أذنيه حتى لا يسمع خطوات حذائه يدب فى ردهات المسجد الكبير فى قرطبة •• اختنقت الكلمات فى حلقه ، وهم أن يخنق الكلب الصغير الذى يمرح بين الأعمدة الهائلة •• جحظت مقلتاه •• ابتلع ريقه •• يسرعون فى خطواتهم •• أهى السرعة التى قلبتنا الى الوراء ؟ يدعون الحضارة •• ونحن ؟ غصنا فى أوحال المستنقعات ثم نسيناها كما تأكل السمكة وليدها !!

يركض فلا ينتهى الا الى تماثيل نحاسية •• يخفى عن مخيلته نظراته التى تصدأ أمام غبار وهمى يتصاعد من الكتل الضخمة •• يتذكر فجأة الكعبة يوم حطمت أصنامها •• عبثا يقرأ ما يحاول فهمه على الجدران •• سحقوا الآيات القرآنية •• لم يبقوا لنا سوى حجارة جوفاء تردد أصداء التراتيل الغامضة التى تنبعث فى سياق فتهتز لها خيوط عنكبوت منسوجة فوق رأسه •• الرحمة !! هنا •• آه ، لا أكاد أصدق •

هنا كانت ترتفع الأعناق الى تلك العمامة الحمراء الزاهية التى تغطى عقلا عظيما • تزوغ فى بصره سيقان عارية وأيد متشابكة •• كنا أمة واحدة •• تشابكت أيدينا فى قديم الزمان ••

كنا ٠٠ ثم تسرب كل شيء من بين أصابعنا بكنا ومن أجل كنا ٠٠
لم يبق غيرها فقدسناها ٠٠ فلاش كاميرا يشيره كالبرق ٠٠

يتقدم اليه تمثال العذراء تحمل وليدها ٠٠ نعم وسندعوك الى مدينتنا الجميلة المقدسة على ضفة نهر الأردن ٠٠ وقع على الهواء باسمك ٠٠ وقع بغير اسمك ٠٠ لا باس ان كنت نسيته ٠٠ فأنت فى طريقك الى السبات العميق ٠٠ نم وانظر الى ٠٠ نم طويلا ٠٠ !! يستلقى بصره فى أحضان الأعمدة الرخامية ٠٠ يرتعد أمام مراياها تتراقص فى كل منها صور له ٠٠ يا الله ٠٠ تتحشرج صرخاته فى خلايا مخه ٠٠ تنهشها الديدان ٠٠ تتجمع حوله أجنحة غربان وهمية مناقيرها خناجر سوداء ٠٠ عروقه تتحول الى أسلاك كهربائية ٠٠ يسيل دمه دموعا لا تجرى ٠٠ يتصبب عرقه رمادا ٠٠ يصطدم بأحد الأعمدة وتنقض عليه الأخرى ٠٠ يلوذ بالفرار ] ٠

# فى الزهراء مدينة عبد الرحمن الناصر (٦)
# وضاحية قرطبة الملكية

- العين لا تروى من النظر والشجى ·
- واجهة قصر مونق بين خرائب موحشة ·
- الحارس الأسبانى يرمقنا بنصف عين ·
- بين رمسيس الثانى وملوك الطوائف ·

مدينة الزهراء أغلى الأطلال وأنكدها حظا · حلم رومانسى حزين وبهيج لا يطاوله خيال شاعر مجنح ، فالعين لا تروى من النظر كما يقول سليمان الحكيم فى نشيد الانشاد ، والقلب لا يكف عن الخفقان ··· بين الصخور المتناثرة وبقايا الأسوار المهدمة فى رقعة شاسعة تمتد على مدى البصر ويقبع فيها السكون وجلال الماضى كئيبا بعد زهو ، فاجأتنا واجهة القصر بزخارفها الأنيقة وألوانها الزاهية على الرغم من ركام القرون الذى غشاها·· بدت فى عيون دهشتنا أجمل من باقات الزهور الاصطناعية

لاحساسنا بنضارتها •• أعادتنى الى ذكرى زيارة وادى الملوك فى الأقصر غرب النيل ( القرنة ) لأول مرة •

كان ذلك فى الخمسينيات •• فى ريعان مصر العربية •• ما أسرع مرور الأيام والليالى وذبول زهرة العمر •• هنالك فى بطن الجبل أفضى بنا الدرج مع عروس الصبا الى أعجب ما عانقته عيناى من مشاهد الحضارات •• مقبرة الملك الفرعونى سيتى الأول محفورة فى قلب الصخور الفولاذية على عمق مسافة بعيدة ، زاهية الأصباغ ( كأنما نفض الصانع منها اليدين بالأمس نفضا ) كما قال شوقى • لن يبرح هذا المنظر مخيلتى ما حييت • انه الاعجاز حين يملك البشر الارادة والقدرة على الابداع فيحققون المستحيل والا فكيف نفسر هذا الواقع الذى تحدى الأساطير والحضارة المعجزة التى تذكرنى بهذا البيت الفريد لعبد الرحمن الشرقاوى :

ان ميـــلاد آدمى ليضنى
أمه، كيف بانبثاق حضاره !!

ومضت بضع سنين على رؤية ذلك المنظر الذى تسكر فيه الأبصار من فرط روعته • ويكفى جمال اللوحة التى تصور آلهة السماء والفلك والكواكب فى سقف الغرفة الأساسية للمدفن الملكى ، فهى تخرج المشاهد من عالمه وتعرج به الى عالم آخر • وربما لم تتراء لى فى تلك اللحظات النادرة أشباح الحفارين والبنائين والفنانين وهم يقيمون ويزينون صرحا ممردا ليضم جثمان فرد هالك فى ظل أقسى الظروف وأقل الامكانات • فقد احتوانى الابهار بالجمال العبقرى والبهاء الذى لا يخطر حتى فى الحلم •

المنظر الثانى الذى تدخره الذاكرة وقع فى العين فجاءة أيضا بعد ذلك بعقد من الزمن ، فى لحظات الاغفاء واليقظة ، فلم نكد

نبرح الموقع المهيأ لتشييد ( السد العالى ) جنوب أسوان تغمرنا فرحة الانتماء الى مصر الثورة العربية ودخولها عصر التصنيع ، ومشاهدة المولدات الكهربائية ( التوربينات ) الضخمة قبل أن يرتفع البناء ، حتى عدنا القهقرى مرة أخرى الى العصر الفرعونى • كنت مع جماعة من رفاق المهنة التى فرضت على بخيرها وشرها فى رحلة نظمها معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة منذ كنت من المسئولين عن ادارته وتنظيمه ، لنشهد معجزة تحويل نهر النيل لانشاء السد العالى أعظم منجزات ٢٣ يولية ، السد الذى صب علينا الاستعمار ويلاته فى العدوان الثلاثى انتقاما من اصرار مصر على بنائه ، وتأميمها شركة قناة السويس لتمويل هذا البناء من دخلها • وكان البرنامج يتضمن زيارة ( معبد أبو سنبل ) لرمسيس الثانى بعد الطواف بين معالم مدينة العقاد والسد العالى •

أدركنى الارهاق فى عبورنا النيل من الضفة الشرقية الى الضفة الغربية فى « معدية » تسمى « الهيدلوفريك » خصصت لهذا الغرض • فانتابتنى سنة من النوم • صحوت على صوت ارتطام الباخرة بصخور الشاطىء ، فاذا بى وقد تملكتنى الدهشة مشدود مشدوه بمنظر عجاب خارق على ربوة تواجهنا فوق الهضبة •• تماثيل أربعة ضخمة متماثلة لرمسيس الثانى ، تمثل جبروت الفرعون المسكون بارادة الخلود وتعميق احساس الشعب بانحداره من سلالة الاله آمون، وتسخير التاريخ ليسير فى ركابه • شاهدناها لحسن حظنا قبل أن تنقل الى موقع آخر كى لا تغمرها بحيرة ناصر بعد اقامة السد •

ذروة الابداع فى فن النحت والنقش والتصوير •• مسحت على أجفانى كى أفيق فأتحقق أن ما بين عينى ليس حلما أو خيال ساحر • ولو كنت يقظان ونحن نعبر النيل لتمليت برؤية تلك التماثيل أشباحا من بعيد تتجلى شيئا فشيئا حتى نبلغ موقعها ،

ولما خذتنى دهشة المفاجأة الرائعة • الرؤية أشبه برؤيا المبدع حين ينفصل خلسة عن الناس ويتوحد بالكون كله فى ( حالة شعرية ) نسميها الالهام ولا ندرك كنهها •

استعدت فى خاطرى المشهدين حين وجدتنى أسير بين الأطلال الأندلسية فتسلمنى على غير توقع الى واجهة قصر الزهراء الأثر الحى المونق بين تلك الخرائب البالية ، كان سكون عميق يلف المكان كله كأن لم يغن بالأمس ، فليس غير الحارس الأسبانى يشغل وحدته بالتفرس فى وجوهنا وخطانا بنظرات طيبة من نصف عين • لابد أنهم لقنوه التقاليد التى تفرضها آداب المهنة ، فلا فرق بين أسبانى وعربى طالما توحد الهدف وهو الاستثمار السياحى • ولن يعود عبد الرحمن الناصر صاحب مدينة الزهراء مرة أخرى فيحارب أو يطالب باستعادة ملكه • كم من معارك دموية شهدتها تلك المدينة منذ بناها ثامن الأمراء الأمويين وأول خلفائهم بالأندلس فى القرن العاشر الميلادى لتكون ضاحية قرطبة الملكية •

تقول بعض المعاجم ان عبد الرحمن الثالث قد بناها تلبية لاشارة جاريته الزهراء فسميت باسمها ، كأنما هذه المعلومة التافهة التى وردت ضمن كلمات قليلة تستحق أن تذكر ، على حين تهمل الدار التى أصدرت المعجم ــ وهى عربية للأسف ــ أهم الأحداث التى شهدتها تلك المدينة ، ولا تصف روائع الفن العربى الاسلامى الذى تعد نموذجا مثاليا له • ولكم يشجى العين ما آلت اليه اذ « لم يبق منها غير أوصافها فى كتب التاريخ » كما جاء فى ذلك المعجم دون أن يستثنى واجهة القصر وبهوه ذا الأعمدة التى أفلتت من الدمار • ويكاد أن يعتصر الأسى قلب الانسان العاشق اذ يقارن بين مدينتين من أزهى العواصم فى تاريخ الحضارات الانسانية :

هذه الزهراء العربية الذابلة الا من بقية جمال أخنى عليه الدهر ، وفلورنسا الايطالية منارة عصر النهضة الأوربية ومدينة دانتي وهى مازالت على عهدها كأنما لم يمض على عمرانها أكثر من خمسمائه عام ، والكنهم أمراؤنا لم يكفهم أنهم كما قال حكيم المعرة :

مل المقـــام فـكم أعاشر أمة
أمرت بغير صـــلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعدوا مصالها وهم أجراؤها !!

ولم يكفهم تقاتلهم فى سبيل السلطة ، بل خربوا بيوتهم بأيديهم قبل أيدى أعدائهم • كان الفرعون رمسيس الثانى يبقى على آثار أسلافه وينسبها لنفسه بعد أن يمحو أسماءهم• أما الذين قضوا على الخلفاء الأمويين بالأندلس وهم ملوك الطوائف فكان المنتصر منهم يدمر عاصمة المهزوم ويبتنى له أخرى• « وبعض الشر أهون من بعض » • فقد ازدهرت الزهراء فى عصر عبد الرحمن النـاصر حتى اذا ولى من بعده ابنه الحكم الثانى ( المســتنصر ) تسلل اليه بالخديعة المنصور بن أبى عامر فجعله كاتبا فى خدمته ، وما لبث المنصور الطموح أن أصبح المسيطر على مقاليد الأمور فى عهد هشام الثانى اذ تولى الحجابة ( رئاسة الوزراء ) مســتغلا ارتقاء هشام العرش وهو فى الثانية عشرة من عمره •

وكأنما أراد المنصور أن يسقط مدينة الزهراء من التاريخ ويتناسى أيامه بها تحت امرة الخلفاء الأمويين ، فولى ظهره لها وشيد ( مدينة الزاهرة ) بالقرب من قرطبة وعلى الوادى الكبير . ونقل اليها النشاط التجارى • فانهارت الزهراء بعد أن كانت فى عهد الحكم الثانى مركزا ثقافيا وحضاريا •

# تأملات عربية بين أطلال رومانية

أبحث عن وجه بلادى وفلسطيني تحت الأضواء المنداحة فى العتمة .. طى حقيبة هذا الصدر العانى العارى مثل قواربنا المنخوبة تصطرع الأطياف الأشباح . لو كنت تناضل حقا ما أخطأت طريقك يا شاعر عصر مترد بين شباك الوهم .. مازلت تجاهد كى تستأصل تلك الأعشاب السامة من روحك وبقايا طبقية .. تتعلق بين الأدنى والأعلى وتكابر أو تستجدى .. لكن الجسد حطام والقلب عليل .. فلتحفظ بعض بقاياك لتكتب تجربة النفى والآم العشق النبلى .. ماذا يجدى مثواك رهين العجز وبيروت تعز عليك .. فحين طلبت هواها ساومك عليها التجار الساسة .. فقبعت حسيرا فى وهران أسيرا للجسد المتهدم والرغبات المجهضة للقيا رفقاء الثورة فى بيروت ولقيا الموت العشق دفاعا عن بقيا شرف عربى مثلوم ، أرض مغتصبة .. أتذكر فى مسراى على ظل فى روما قول ابن عمار بطل الأبطال وزاهب محراب الحرية : روما صمدت فى وجه « اتيلا » الهمجى القاتل .. هزمته وأمام القلعة بيروت وقف السفاح الارهابى حسيرا لم يدخلها ..

عكا هزمت بالأمس جنود الغازى بونابرت ·· عكا بيروت أختان على الدرب الصعب ·· لكن الذئب الصهيونى الأمريكى يقهر قاهرة الكورسيكى ·· وقديما عادت عكا للبطل صلاح الدين من بعد ثمانين من الأعوام عجاف مزق فيها الشمل ·· وغدا تلتئم الأشلاء وتشرق شمس الشهداء ·· شمس الحرية ويجف الدم ·· أمل مجانى يا شاعر عصر طقوس الخوف وتجارة جثث الأطفال العطشى والأرحام المشقوقة ·· بل رؤيا الواقع والتاريخ الحى ·· الدرب طويل والمعركة الكبرى لم تحسم بعد ·

أتذكر بين الأطلال الرومانية وجها قمريا منذ سنين ، مولده روما يسكب فى فمى الأشعار وفى قلبى رعشات الحب الحانى القاسى قبل النكبة :

أتت روما بلا حراس
وغير ملامح الأطفال لم نشهد
ونجم فوقنـا يولد
تعالى ·· ذابت الأسوار
ومال الورد تحت ظلال خديك
وغاب الليل والأسرار
وما عادت بنـا الذكرى
الى أيامى المنزوفة الأشواق
فـــوق النيـــل
وأصداء من الترتيـل
تبث حنينى الجواب للقرية

## وتخلع عن مدينتنـــا
## قنـــاع الزيف ..

لكن النافورات الصداحة فوق الساحات الرومانية تتفجر في عيني طيوف دماء للأطفال الصرعى في أرض الأرز ، وفي ضفتنا الشامخة الصامدة الغربية تضرب بالسيقان المتطايرة المبتورة للنابلسي الأسطورة بنسام الشكعة ، وتناديني غزة عبر الأجراس الأصداء فأذكر دقات قطار مصري يحملنا قبل هزيمتنا للبيارات الخضر ، واليوم يحلب دمها للسياح العرب وأنصار يهوذا في روما، وينـوح المتنـــبي وأبو تمام يصرخ في حنجـــرة أمرأة عربيـــة « وامعتصماه » فتجاوبه الأصداء من الاطلال المنثورة في «الكولليزم» الشاهق بين ظلال العدمية .. كل الطرق تؤدي بالسارين الى روما، لكن طريقي موصدة والأقدام الهمجية فوق جماجمنا .. ينبعث صفير حمائم جائمة بين الأسوار .. أتراهـا تنتفض كما ينطلق الفينيق من الأكفان جناحين من النار رمادا مشتعلا ، أم نتحول نحن العرب عمالقة الأمس أساوى اليوم الى ذكرى مثل هنود حمر في محرقة اليانكي أو مصيدة الكاوبوى ..

تمثال الحرية مازال ينسى وجه الحرية .. فمتى يقعى مثل الكولليزم رجاما وحطاما ؟ أو يتحول في متحف تاريخ الانسانية رمزا للافك وأعداء البشريـة ؟ ومتى يتبعـه الأنصــار المبهورون بأحذية طغاة العصر وجلادي الشرفاء ؟

« دانتي » يتفرس في وجهي .. يسألني : « عربي أنت ؟ أمن دم رجل الهمني « الفردوس » .. فكيف تزور « فلورنسا » قبل مزارك محبسه في الشام ؟ » يتصبب قلبي عرقا .. واخجل حين يلاقيني يوما ويطاردني قوله :

لا تظلموا الموتى وان طال المدى
انى أخاف عليكمو أن تلتقوا

أسند رأسي كالهائم فوق جدار الشاعر ·· لا يفتح لى بابه ·· يرمقني التمثال النصفي المستشرق ساحته بين كنيسته والدار الموصدة على الأسرار ·· تتخايل أمامي أشباح « الجحيم » و « المطهر » ·· أردد أبياتا قديمة كتبتها قبل الطوفان :

صديقتي لم يعد الزومان ·
وأقبلت ·· عادت « بياتريس »
**غريبة مبهورة كالحب**
**تطير فى المدائن المعلقة**
**تنساب فى ساحاتها منطلقة**
**تبحث عن عش لها ·· عن قلب**

« بياتريس » حبيبة دانتي الليجيري وملهمته تخطئها العينان فى المكان ، ولا أذكر الا شيخنا الجليل أبا العلاء المعرى ملهم الشاعر الايطالى الخالد فتختفى أشعارى ويهزنى من البعيد صوته العميق القوى :

**مل المقـام فكم أعاشر أمة**
**أمرت بغير صلاحها أمراؤها**
**ظلموا الرعية واستجازوا كيدها**
**وعدوا مصالحها وهم أجراؤها**

وأغادر فلورنسا « أثينة ايطاليا » كما يسمونها وفى الحلق غصة .. فلماذا كتبنا نحن العرب على أنفسنا ذلك القدر الكئيب ؟ لماذا يصدق فينا حتى اليوم ما قاله المعرى منذ ألف عام ، والقوم هنا فى سباق حضارى وفى صراع لتحقيق العدل الاجتماعى لا يهدأ ، والشعوب تنعم بشيء من الديمقراطية لا نظفر نحن بمعشاره ؟

وفى طريق عودتى فتحت ديوان عبد الرحمن صدقى ، الذى رافقنى فى رحلتى وقد ضم قصائده فى روما وفلورنسا وجنوا ونابلى والبندقية ، تلك المدن الايطالية التى تنتمى اليها زوجته التى استلهمها هذا الديوان الشجى « من وحى المرأة » بعد رحيلها عن هذه الحياة . وغمغمت أردد أبياته التى يخاطب بها روما المدينة الخالدة كما وصفها :

وردتك مشتاقا الى الفن ظامئا
وعدت على شوقى بنغبة طائر
سجلك مسجور وفنك باذخ
عميق فما توفيك زورة زائر
أرانى على الأطلال أطول وقفة
وأمعن تسريحا لفكرى وناظرى
أراعى الى قدس المعابد اصبحت
مدارج أقدام ومجرى حوافر
وأربابها صرعى التماثيل ضيع

وكانت ترجى في الخطوب الكبائر

وأحنو على أى الجمال تناثرت

حصى أو بقايا في ضمان الجماجم

رسومك يا روما القديمة عبرة

لأرمل ملتاع الجوانح عابر

تأسيت يا روما ولو بعض ساعة

فلست على رغم الهوى بمكابر

# يوم طرقت باب « دانتي » •• في فلورنسا

قد يهون العمر الا ساعة ، وتهون الأرض الا موضعا ، هكذا يقول شوقي • وقد يكون هذا المكان هو الأرض التى تحتضن الوطن وتقربها عيوننا في الصباحات والمساءات ، ونحن اليها كلما غابت أو غبنا عنها ، أو يكون رقعة عزيزة من هذه الأرض أو هذا الوطن مثل مسقط الرأس ، أو بيت المحبوب الحاضر أو الغائب ، أو مدينة لها تاريخها النضالى الذى يشدنا اليها مثل بورسعيد والسويس ، أولها تاريخها الحضارى وملامحها الباهرة وروحها الساحرة مثل الاسكندرية •

كما قد يكون هذا المكان قرية أو مدينة جميلة بعيدة لاتنتمى اليها وقد لاتستطيع اليها سبيلا ، لكنك زرتها مرة فى ساعة صفو جاد بها عليك القدر ، فعاشت منذئذ في وجدانك ، وما هانت عليك برغم تقلب الأيام والليالى بها أوبك ، وتراكم الأحداث الحلوة والمرة ، وضمور خلايا الذاكرة تحت عبء الزمن الذى يمطى علينا

ثم يمضي بنا ، أو تحت وقع تلك الأحداث اذا كانت جهمة كوجـــه الخريف .

أثارت تلك التأملات في خاطري ذكرى من فلورنسا ، تلك المدينة الايطالية التي لم أكن بقادر على الاحتفاظ بها في صندوق مخيلتي لولا أنهـــا مدينة ( دانتي اليـــاري Dante Aligierte ) ( ١٢٦٥ ـ ١٣٢١ ) أعظم شعراء ايطاليا الذي خلد اسمه في الأدب العالمي بملحمته « الكوميديا الالهية » ، وقد وصف بها طبقات الجحيم والمطهر والفردوس ، في سفرة خيالية قام بها وكان رائده الشاعر اللاتيني « فرجيلوس » وحبيبته « بياتريس » .

ولا أكاد اليوم أصدق أنني طفت بهذه المدينـــة التي تشبه الأساطير ، مع أسرتي الصغيرة ، ذات يوم من صيف ليس كمثله صيف في بهائه ونضرة بساتينه لولا أننـــا مازلنا نحتفظ بصور تذكارية التقطناها هناك . ونحن نمشي في شوارعها التي أبقى أهلها على بلاطها المرصوف منذ العصور الوسطى تدق عليه حوافر الجياد التي تجر المركبات الكرنفالية ، وهي توقع لحنها على صوت الحوذي الجهير المتدفق كعادة الطليان ، وكأنه يريد اذ يرفع عقيرته أن يمتعنا بغنائه الأوبرالي فيما يظن أو يطرب حصانه ويحثه على المسير .

استوقفته قليلا حينما وصلنا الى منزل « دانتي » الذي دلنا عليه .. قرأت اسمه وطرقت بابه ، لم يجبني أحد في الداخـــل . وددت لو كان هناك حارس فيسمح لنا بالتجول في البيت . لكنني أحسست بروح الشاعر العبقري تطل علينـــا من احـــدى النوافذ وتستضيفنا هنيهـــة كي نتنفس العبير الذي يشـــيع في المكان ونأنس اليها

ها هي ذى فلورنسا ، والمدن مثل الأشخاص تألفها أو تنفر منها منذ أول لقاء ، والجميلات منها كالنساء « كل مليحة بمذاق » كما يقول أمير الشعراء ‥ وتأسرك مدينة ( دانتى ) بعبقها التاريخي فقد كانت عروس المدن الأوروبية وعاصمتها الحضارية فى العصر الوسيط ‥ مدينة مجلوة ساحرة كأنها أفروديت ربة الاغريق التى ولدت من الموج ، واعتادت أن تقبله وتغتسل به كل صباح تحت أشعة الشمس ونسمات الخمائل وعطر الورود ٠

## ويل للشجى من الخلى

أينما تولى وجهك تبهرك أفانين المبانى والصروح والأعمدة ذات العقود المزخرفة ، والتماثيل التى أبدع صنعها المثالون فى عصر النهضة ، ومازالت محتفظة بطابعها ورونقها « كأنما نفض الصانع منها اليدين بالأمس نفضا » ٠ ويكاد الدمع يطفر من عينيك حزنا حين تقارن بين تلك المبانى البديعة وبين ما آلت اليه ـ فى مصر التى كانت أم الدنيا ـ عمارات الخديوى اسماعيل ذات الطابع الفرنسى الأنيق الدال على إفتتانه بالذوق الأوربى ، والبيوت ذات الطراز الأندلسى الفريد فى حى مصر الجديدة الذى أنشأه البارون البلجيكى « امبان » وقصر المسافر خانة آخر الضحايا ‥

تشعر بالأسى والحسرة لما حاق بتلك المبانى والمساكن ، اذ يجرى هدمها منذ عصر الانفتاح الميمون واحدة تلو الأخرى ، وبناء أبراج أسمنتية على أطلالها تفتقد أية مسحة جمالية ، لتغل ملايين الجنيهات للمستغلين الفجار المتاجرين بأزمة الاسكان ٠ وليست المقارنة بين هنا وهناك ترفا فى القول ، بل اشارة الى تسلل أفراد وجماعات تحمل جرثومة اللهاث وراء الربح العاجل الوفير ولاتتوارع ضمائرها ـ اذا ما كانت لها ضمائر ـ عن الانغماس

فى رذيلة الكسب الحرام وهى تشنيد بنيانها بالأسمنت المغشوش ، وعن استفزاز المواطنين الشرفاء الكادحين ، والعبث بنسيج الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعى ، بنشوء طبقة جديدة مثل طبقة أثرياء الحرب • وتلك ظاهرة تكاد تتحول الى وباء كاسح لاراد له من أساطين أو شياطين مجالس المدن والقائمين على الادارة المحلية الا قليلا منهم ، وويل للشجى من الخلى •

## حوار مع صاحب الكوميديا الالهية

تتداعى الذكريات فأجدنى على باب « دانتى » كما تشهد الصورة الفوتوغرافية ، لكن وقفتى لاتشبه وقفات أجدادنا الشعراء على الآثار الباقية من ديار حبيباتهم ، فدار شاعر فلورنسا مونقة • وها هو ذا يخلع عنه ثوب الفناء ويرتد حيا ، ويدور حديث بيننا والحديث ذو شجون •

● أنت مفكر تبحث عن الحقيقة ، ونحن فى الشرق نقول ان الحقيقة ضالة المؤمن • لذلك أسألك عن رأيك فى قضية اختلف فيها الباحثون بعدك ، وهى تأثرك بشاعرنا الكبير « أبى العلاء المعرى » فى « رسالة الغفران » التى طاف فيها من قبلك بثلاثة قرون بالجنة والنار ، فوضع من شاء من الشعراء قبل الاسلام فى قائمة المغضوب عليهم أصعاب السعير ، ووضع آخرين ممن رضى عنهم فى جنات النعيم • أتراك كنت مقلدا له فى ملحمتك ؟ أم كان ذلك من قبيل وقع الحافر على الحافر كما يقول نقادنا العرب القدامى ؟ ولقد أقام الحجة على تأثرك بالمعرى بعض الباحثين من المستشرقين والمستعمريين وخالفهم آخرون •

●● لا أنكر أننى قرأت « رسالة الغفران » فى ترجمتها الى اللاتينية ، وربما اختزنت بعض مشاهدها فى ذاكرتى ، فتأثرت

بها في ملحمتي دون قصد الى تقليدها ، فأنا وشاعركم ، بل شاعر الانسانية الحكيم ، كنا نحلق في أفق واحد وهو مسألة الثــواب والعقاب • والتشابه بين رسالته وملحمتي انما يكمن في الاطار ، لكن لكل منا أسلوبه ورؤيته •

● دعني أعبر عن أسفنا وضيقنا ــ نحن أبنــاء الحضــارة العربية والاسلام ــ بمفهومه الانساني التقدمي ــ اذ أقحمت ذكـــر محمد عليه السلام في ملحمتك وحشرته في زمرة الأشرار أصحاب الجحيم !! كيف انحدرت الى هذه الهــوة وأنت من أنت في فكره الناضج بالحكمة والمصور للمعاني والقيم الانسانية ؟ ولقد نقلنا الى لغتنا أعمالك الأدبية بوصفها من الآثار الفنية الخالدة كما ترجمنا من قبل أدبيات آبائكم وأجدادكم الاغريق دونما نظر الى الاختلاف في الدين أو الجنس والثقافة • اتسع أفقنا ليشمل العــالم كله ايمانا منا بوحدة البشرية ودور المعرفة في التقاء الانسان بالانسان وتذويب الفوارق بين الشعوب •

وكان رأينا ولايزال أن الأدباء والفلاسفة يصلحون ما يفسده السياســيون • فكيف اختلط عليك الأمر وجنحت الى ســـوء القصــد ؟!

●● لم أندم بعد رحيلي من الدنيا على كلمة خطهـا قلمي مثل ندمي على مقولتي عن نبيكم محمد ، ولكن عذري ــ وأرجــو أن تتقبله ــ أنني ولدت ونشأت في العصور الوسطى التي استشرى فيها داء التعصب ومعاداة المسلمين ، ولم ينج أحد من هذا الداء الوبيل بسبب الصراع العقائدي بين الشرق والغرب ، وتحول هذا الصراع التراجيدي الى ما عرف بالحروب الصليبية وهي من أبشع الجرائم في تاريخ البشرية •

ولو تأخر بي الزمن وجئت في القرن العشرين لأنصفت صناع الحضارة من العرب والمسلمين ، وفي طليعتهم أبو حنيفة النعمان ، وابن رشد الداعية الى اعمال العقل ، والثائر العظيم جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده المصلح المجدد، وطه حسين، وهيكل، والعقاد وغيرهم من رواد التنوير ، ولكنت من المنادين بالأخوة بين البشر وبين الديانات جميعا ودعاة حقوق الانسان .

لكن القرن العشرين حــان ولم تتطهر أوروبا من جحيمها ، بل أضافت الى التعصب الديني جريمة لاتقل عنه بشاعة واهدارا للتراث الانساني، وهي الفاشية التي دمرت في بضع سنين ما بناه البشر في عدة قرون • وعلى حين كانت الكشوف الجغرافية والعلمية تفسح الطريق للقضاء على خرافات العصور الوسطى والتقدم نحو عالم أفضل ، عالم أوحد لايستغل فيه الانسان ولا يستعبد ، استغلت أوروبا هذه الفتوحات في استعمار آسيا وافريقيا ونزح ثرواتهما وتقويض حضاراتهما ، بدعوى تمدينهما على يد الرجــل الأبيض مبعوث العناية الالهية الى البشرية !!

لكن العدالة الالهية شاءت أن يصطدم النظام الاستعماري لانجلترا وفرنسا والدول الدائرة في فلكهما بنظام رأسمالية الدولة ورغبة هتلر وموسوليني في اقتسام المستعمرات ، فاحترقت أوروبا وامتدت ألسنة النار الى أوطان شعوبنا المغلوبة على أمرها ، وساقها المستعمرون كالقطعان لتكون وقودا لحرب لاناقة لها فيها ولا جمل ولسان حالها يقول :

لم أكن من جناتها علم الله واني بحرها اليوم صالي •

●● لوعدت الى الحياة مرة أخرى وشهدت أهوال الحربين الكونيتين الأولى والثانية ، وجنايتهما على كل ما هو جميل ونبيل

وجليل فى الكرة الأرضية ، لوضعت السفاحين أعداء الانسان جميعا فى أشد طبقات الجحيم ظلاما ، بدءا من الفوهرر المأفون السفاك ، وصاحبه خليفة نيرون الأفاق والأشر ، حتى أوجيستو بينوشـية طاغية تشيلى الذى تطالب جمعيات حقوق الانسان وأبناء ضحاياه الآن بتقديمه الى المحاكمة ، باعتباره مجرم حرب لاتقل جرائمه عن جرائم النازيين الذين أدانتهم محاكم نورنبرج ، وان كان قضاتها الأمريكيون بالأمس يكيلون اليوم بمكيالين ، فيغمضون عيونهم عن الأيدى الملطخة بالدم ويعاقبون الأبرياء .

● ربما يشفع لك عن خطئك فى حق أحد أعظم بناة الحضارة ودعاة التسامح ما أضفت الى التراث الانســـانى من روائع أدبية أسهمت فى تنمية الحس الجمالى والمشاعر الانسانية المشتركة . لكن دعنى أوجه اليك سؤالا آخـــر وأنت فى عالم جلاء البصـــيرة والتطهر من أدران الغرائز . وقبل أن نفترق ، ألا ترى أن الغرب الآن ـ بعد ما بلغه الانسان الحديث من رشد ومعرفة حتى هبط على القمر عبر السفن الفضائية ، وأصبح العالم مثل قرية صغيرة الكترونية بعد ثورة وسائل الانتقال والاتصال ـ مازال يحمل فى أحشائه البذور السـامة من رواســب النزعة الصليبية والتفرقة العنصرية ؟ ويكفى أن أذكر لك اسم واحد من الفاشيين الجدد تظلله سماء باريس عاصمة النور ، وهو « جان لوبان » الذى يحرض الفرنسيين تحت سمع العالم وبصره على اغتيال أو طرد أبناء المغرب العربى العاملين فى فرنسا ، والذين أسهم آباؤهم فى اعادة تعمير المدن الأوربية بعد تخريبهـــا فى الحربين العالميتين . وفى بلجيكا أضرم المتطرفون اليمينيون فى بيوت تســكنها أسر تركيـــة لاذنب لأطفالها ونسائها حتى يحرقوا أحياء .

●● وأسفا أن يغتال القبح الجمال ، والوحشية البراءة ، والجحيم الفردوس .. لو عشت عصركم لتبرأت ممن شوهوا وجه أوربا ، واستبدلوا بالفضيلة البيضاء الحقد الأصفر المسموم والطغيان المحموم .

● اتعلم ان تجار الحروب في الغـــرب ولاسيما في أمريكا يشعلون الفتن ـ عبر أجهزة المخابرات ـ بين دول العالم الثالث ـ طبقا للتسمية الشائعة الظالمة ـ ويوهمون حكوماتها وشعوبها أن جيرانها لها بالمرصاد ، كي يستنزفوا ثرواتها النفطية وغير النفطية عن طريق عقد صفقات التسليح معهـــا ، لا بالملايين من الدولارات بل بالبـلايين ، مع أن العـــدو الحقيقي المتربص بهذه الدول هو الصهيونية والشركات الاحتكارية المتعددة الجنسية ، وهو الفاقة والقهر والخرافة التي غذاها الاستعمار القديم والحديث ، وزادتها الحروب الأهلية الآن تفاقما حتى يكاد أن يتحول هذا الداء الى مصدر ابادة للجنس الافريقي ، وخاصة أن منازعات الحدود التى وضعها الاستعمار لاتنتهى .

●● انه الصراع بين النقائض منذ أقدم العصور ، والتاريخ يعيد نفسه وان كان ذلك بأشكال وأساليب جديدة تتفق مع كل مرحلة . لقد تطورت الانسانية بالعـلم والعمـــل ، وحققت منافع لم يكن أكثر الناس تفاؤلا يحلم بها . وأعلم أن ما تحقق من مخترعات في زمانكم ، أعنى نصف القرن الأخير ، أكثر مما تم خلال آلاف السنين . وهاهم العلماء يحاولون غزو المريخ بعد غزو القمر . ولكن المفارقة المثيرة للألم أن ركام الغرائز الوحشية مازال ـ كما قلت ـ مسيطرا ، والعلم يســتخدم للقتل الصريح أو الخفى ، والعقـل للتضليل وهو الذى قال فيه شاعركم أبو العلاء « لا امام سوى العلم مشيرا فى صبحه والمساء » .

واختفى عن ناظرى صاحب الكوميديا الالهية • وكان آخـــر ما سمعت منه قوله : أيها المثقفون ، يا دعاة التنوير والديمقراطية والعدل ، رسالتكم يا طلائع الشعوب أن تبثوا الوعى بالحقائق فى نفوس أجيالكم الجديدة ، وترشدوا الحاكمين للعمل بما نصحهم به صاحب رسالة الغفران ، حتى لا تلقفكم معهم دوامة الافك ، وتقعوا فى حبائل الأفاقين وشذاذ الآفاق :

**مـــل المقـــام فكم اعاشر أمة**
**أمـرت بغير صلاحهـــا أمراؤها**
**ظلموا الرعية واستجازوا كيدها**
**وعدوا مصالحهـــا وهم اجراؤها**

# وتداعت الذكريات
# من فلورنسا الى الجمالية

★ الجمالية والروائيون الجبروتيون .

★ الحلقة المفقودة في مصادر الالهام .

حين مررت على بيت دانتي في مدينة فلورنسا التي يسمونها اثينة ايطاليا ويسميها شاعرها دانتي لؤلؤة المدن ، غلب الحزن لما آلت اليه مدننا العربية القديمة وآثار الراحلين العظام من أسلافنا على بهجتي بزيارة مهبط وحي صاحب الكوميديا الالهية ، وارتياد مدينة الحرية التي ولدت فيها حضارة عصر النهضة ، وأنجبت « ميكيل انجيلو » الذي هوى بأزميله على تمثال موسى بعد أن أكمل صنيعه لأنه استنطقه فلم ينطق .. مدينة أثرية كاملة كأنما نفض الصانع منها اليدين بالأمس نفضا كما يقول شوقي ، رغم مرور أكثر من خمسمائة عام على بيوتها وكنائسها وجسورها وتماثيلها ونوافيرها وقبابها وأبراجها . كنيسة عاشق بياتريس مازالت مثل دار ابن لقمان بالمنصورة على حالها بلا قيد ولا صبيح الطواشي .. وعن روعة

الحياة وعبير الخلود لا تحكى فلورنسا فقط بل تغنى • وهى لم تتوقف عن الحياة والغناء لأن أهلهـا هم أصـدق عشاقها وأبهى مريديها وأنبل فرسانها وشعرائها •

رجعت بى ازقة فلورنسا الى موطنى الحبيب •• مدينتى البعيدة القريبة •• مدينة الألف مئذنة والألف عام • حين غادرتهـــا منذ سنوات كانت القاهرة المعزية كأنها تريد أن تنقض ولا تجد العبد الصالح معلم موسى ليقيمها • كانت تحتضر فى بطء تحت وطأة أقدام الزمن الراجفة وأيدينا الكليلة المغلولة وعليها مسحة من جمال فائق قديم • تشكو فى صمت وانكسار ظلم ذوى القربى • أرفع وأروع ماشيد فى عصر الفاطميين والمماليك والعثمانيين أصبح أثرا بعد عين ، ولماذا لانجهر بالحقيقة رغم مرارتها فنقول أصبح مباءة للقمامة بل أبشع من هذا •• أبواب القاهرة العتيقة : باب زويلة ، باب النصر ، باب الفتوح ، باب المتولى تدعو شعراء الأطلال ليبكوها أو تدعونا لنمد اليها يد الغوث •• والجمالية فلورنسة مصر القديمة يتهافت عليها الروائيون الجبرتيون ليصوروها فتتحول روحها الى ورق ومداد ويخذلها الحكام ، الحكام يأمرهم دائما •• فلا تسمع اليوم فى دروبها المتعرجة الا « دولار دولار دولار ، صرف صرف » بعد أن كانت تصدح بأصوات المطارق كالأجراس على النحاس ، وهتافات الحرفيين الشعبيين الصغار من أحباب الحياة وعشاق الكدح اليومى الصابرين•

يعيش فيها الغرباء والطفيليون اليوم والباحثون عن الكسب الحرام السريع ، ويتوارى تحت خرائبها الانسان الحقيقى صاحب الديار بالعرق والدم والدموع آلاف السنين ، وتتلاشى ضـحكات دارين البلدة التى طالما جلجلت، والتواهد الرمضانية تحت الفوانيس المضيئة فى أيدى الأطفال وتحت الأسقف التى تغطى الأسواق ، مجموعات من الآثار يندر أن يوجد لها مثيل فى أى عاصمة سياحية

لعوامل التعرية ونهب لكل من هب ودب • لم يبق من بيوت القاهرة القديمة غير قاعة محب الدين فى بيت القاضى ، وقاعه الأمير بشتاك فى شارع المعز لدين الله ، ومنزل السنارى بالسيدة زينب ، تراث معمارى وفنى وثقافى يقدم صورة صادقة للحياة فى المجتمع المصرى خلال القرون الماضية • معظم ما وصل الينا يرجع الى العصر العثمانى ويشكل كل أثر منه وحدة فنية واجتماعية مميزة •

لم يصلنا للأسف بيت قاهرى من عصر السلطنة المملوكية عندما كانت مصر مركزا لامبراطورية شاسعة تحمى الحرمين ، وتذود عن البحرية ، وتبسط سلطانها على قبرص حتى أطراف الأناضول • لقد اندثرت قصور الأمير أزبك ، وقوصون ، وبشتاك وطومانباى ، وغيرهم من كبار أمراء المماليك الذين لمعت أسـماؤهم فى سـماء التاريخ المصرى ، حتى قصر محمد بك الألفى الذى اتخذه نابليون مقرا له خلال الحملة الفرنسية على مصر ( ١٧٩٨ ) تهدم وبنى مكانه فندق شبرد الذى احترق عام ١٩٥٢ قبيل ثورة ٢٣ يوليو ، ولم يبق منه الا أرض خالية ، وشارع يحمل اسم صاحب القصر • وكذلك قصور مراد بك وابراهيم بك آخر الأمراء المماليك الذين عاشوا فى العصر العثمانى وأدركوا عصر محمد على حتى قضى عليهم فى مذبحة القلعة المشهورة ولم ينج منهم غير مراد بك • كلها تزايلت وما بقى غير بعض الدور التى بناها أبناء الطبقة الوسطى • أما الشعب الذى كان يسكن وحدات سكنية ضخمة يطلق عليها الربوع ، فلم يبق من بيوته شىء • وهكذا فقد المؤرخون والعلماء كنزا ثمينا بفقد هذا التراث من آثار نهاية العصور الوسطى بمصر فى عهد المماليك •

روائع الفن المعمارى التى خلفها العثمانيون تتجلى فى قصر المسافر خانة وبيت السحيمى وبيت الكريدلية وتوجد فى المسافر خانة أضخم « مشربية » وصلت الينا • واسم مشربية مشتق من

الفصل « شرب » ثم أطلق على النوافذ المصنوعة من الأعمدة الخشبيه المتشابكة ، لأن القلل الفخارية كانت نوضع عليها لتبريد المياه بمرور الهواء • وفي معظم الأحيان نجد رفا صغيرا يبرز الى الخارج ترص عليه هذه الأواني ، وفي قصر المسافر خانة رفوف أخـــرى رخامية تتخللها فجوات مستديرة توضع فيها الآنية للتبريد ويطلق عليها « مزيرة » • وللمشربيه غرض آخر هو حجب الواقف خلفها عن عيـــون المارة بالطريق ، محققة بذلك متعتين ، فهي مكان رطب يسمح بدخول الهواء ، وهي بمثابة شرفة تمكن النساء القابعات في الطابق الأعلى للبيت المسمى الحرملك من متابعة كل ما يجرى داخل البيت دون أن يراهن أحد من الضيوف أو الغرباء الجالسين في السلاملك بالطابق الأسفل • وهذه المشربيات التي تطـــل على الفناء الداخلي أو الحديقة أجمل من تلك التي تستشرف الطريق ، وقد ركبت فيها نوافذ صغيرة يمكن رفعهـــا الى أعلى في مجـــار صغيرة محفورة في الخشب اذا رغب أصحابها في ذلك ، وكثيرا ما تنظر منها نساء القصر الجميلات بحجة الشراء من الباعة المتجولين ، وليستعرضن جمالهن في الوقت نفسه •

وتتوسط حديقة المنزل نافورة مرصعة بالرخام الملون ، وتلمع في أقصى الفناء بئر للمياه • وينفرد قصر المسافر خانة بأغـــرب وأطرف ما وصل الينا من الفن المعماري للبيوت القديمة • انه الجزء المخصص للطاحون التي كانت تطحن الغلال ويديرها ثور • وهو عبارة عن طريق ممهد يصعد في شكل حلزوني بدون درجات لتسهيل صعود الثور الى أعلى • وكانت الطاحون ترفع الماء من أسفل أيضا • ويحتوى القصر على حمامين ، أحدهما صيفي لاتستعمل فيه الا المياه الباردة ، والآخر شتوى يتم تسخين الماء فيه بطريقة معقدة •

حتى أوائل الستينات كان سكان حارة الطبلاوى في الجمالية، وسكان قصر الشوق الذى أطلق نجيب محفوظ اسمه على جزء من

ثلاثيته ، كانوا ينسجون القصص الخيالية حول بيت المسافر خانة ، هذا البيت القديم المهجور • فثمة من يقول ان العفاريت تسكنه . وآخر يقول انه مأوى لأمنا الغولة • كان الناس يتجنبون دخوله ، والأطفال يعدون كلما بدا لهم من بعيد • وظل الأمر كذلك حتى امتدت اليه يد العناية والترميم ثم خصصته وزارة الثقافة لسكن الفنانين • عندئذ دبت الروح فيه ، واعتاد أهل الحى رؤية الأجانب والغرباء وهم يسعون اليه •

تتماوج جـــداول التذكار ويضيق المجال اذ ترد على الخاطر صورة بيت السحيمي وبيت السنارى بعد قصر المسافر خانه والآثار الفنية الجميلة التى أفلتت من الضياع ، ولم تستوحها الا قليل من الأعمال الأدبية التى تبقى بعد اندثار تلك الآثار ، فتخلد روحهـــا أو تنفسخ فى رمادها فنحسها بالوهم أو الحلم عبقا من تاريخنـــا كالزهور الخريفية • واذا كانت الرواية قد نسجت بعض الخيوط من القاهرة المعزية كما نجدها عند نجيب محفوظ الذى بدأ أعماله مستوحيا التاريخ الفرعونى وذلك فى « كفاح طيبة » ، فان القصيدة لم توظف القـــاهرة المعزية فى حين التفت بعض الشعراء الى مصر الفرعونية مثل أحمد فتحى فى قصيدته « الكرنك » ، والبعض الآخر الى المجد العربى فى عصر الجاهلية وفى العصر الاسلامى • وهنالك مسرحية شعرية مغمورة كتبها الأديب الراحل محمد محمود زيتون بعنوان « على أبواب الاسكندرية » يؤرخ فيها فنيا للفتح الاسلامى لمصر • وكتب « جورجى زيدان » قصصا عديدة مثل « العباسة » وغيرها أعاد فيها صياغة الأحداث وضمنها رؤيته التى نختلف فيها معه ، اذ شابها تشويه يصل الى المسخ فى بعض الأحيان • ولكن كفاه فضل السبق الى تطعيم فن المقامات فى القصص العربى بدم جديد • ومن هذا النبع استقى من بعده على أحمد باكثير ومحمد فريد أبو حديد رواياتهما التاريخية التى تختلف شكلا ومضمونا عن أعمال

جورجي زيدان ، والتى وضعا فى بعضها المحاولة الأولى لصـــياغة الشعر الحر ، ولاسيما ما ترجمه الثانى من مسرحيات شكسبير ٠

وتبقى القاهرة مدينة الألف عام تحت الظلال الشاحبة التى تخيم على الجمالية والأزهر والسيدة زينب وباب الخلق ، وأودعها وأنا أهمس بأبيات من وحى حنينى الى مدينة الاسكندرية حين كنت فى مدينة وهران بالجزائر :

**أغنيـة لــم تتم**

**وصـــبارة من رحيق مصفى**

**ولكن قلبى طريـــد**

**وأنت بعيد بعيد**

**وحيــــــد**

# فى مدينة الدخان والدمى

رغم فشل محاولاتى المستميتة أكثر من مرة للدخول الى الجنه التى كانت تعنى بالنسبة لى فى هذا الوقت البعيد الخروج من الكهف الوظيفى فترة ولو قصيرة والانطلاق الى العـــالم ، ورغم النصيحه الغالية التى قدمها الى الرجل المرموق « م ٠ س » بحكم درايتـــه الواسعة بخفايا الأمور ، فان الاحباط لم يصبنى قط ٠ كنت حينذاك مثاليا طموحا الى غير حد ، مغرما بانتزاع حقى حتى المعاناة المريرة ، أواصل الليل بالفجر أملا فى تجاوز شريحتى الاجتماعية فى القاع ، والوصول الى سطح الأرض الصلبة بتكسير القيود بالأظافر فى عالم الأنياب الشرسة الخفية ، عالم الليث الذى لايبتسم وان رأيت نيوبه بارزة كما صوره المتنبى منذ ألف عام وأكثر ٠

لذلك لم أصدق الناصح الأمين المهيب وكان ظنى أنه يريد ان يدخر لنفسه ـ اذ كنت أعمل تحت رئاسته ـ ما أبذله من جهـــود فى الاعداد للمسابقة العلمية التى كانت تعقدها الوزارة للفوز باحدى البعثات أو المنح الدراسية للتدريب فى الخارج ٠

والحق أننى لم أكن سيئا جدا فى سوء ظنى ، ولا كان سوء الظن هذا عصمة أبتغيها ، فالخيبة كانت دائما من نصيبى ، لأننى لم أكن أحسن « اللعبة » بل ولا أعرف حتى قواعدها البدائية ·· كان الارهاق هو علاقتى الوحيدة معه ، فلولاه لما شرفت بالعمل الى جانبــه واقترن اسمى باســمه على صفحات مجــلة الوزارة ·

مازلت أذكر عباراته المغلفة بالتعالى الى حــد الاستخفاف والسخرية : عبثا تضــيع الوقت ·· لن تقهر المستحيــل ·· هذه المسابقات كلها « كوموفلاش » نتائجها معروفة سلفا وأنت لست من الموعودين ··

التفاصيل لاتهم حين تحدث المفاجأة · هكذا وجدتنى ذات يوم فى رحلة ليلية أركب فيها الطائرة عبر الأطلنطى · بالصبر المعروف عن أيوب المصرى والفلاح الفصيح والشــاطر حسن انتقلت عابر فضاء ـ كما قال لى صديق ـ من حوارى الترعة البولاقية فى حينــا الشعبى شبرا الى الدنيــا الجديدة كما كانــوا يسمون أميركا فى الثلاثينات ، أو مدينة الدخان والدمى كما سميتها فى ديوان من وحى هذه الرحلة فى الستينات يحمل هذا العنوان · وعرفت فى رحلة الأيام المائة مالم أعرفه فى مطالعات وتجارب السنوات الطويلة التى سبقتها ، وربما كنت أقل وعيا فى السنوات التى لحقتها لو لم يقدر لى أن أخوض تجربة الحياة بضعة شهور فى عالم الانســان الوحش الجميل · فليس من رأى كمن سمع كما يقول المثل العربى القــديم ·

كنت متفجرا بالحماس متفائلا بانتصار الحرية والعدالة فى العالم كما علمنا تاريخ الصراع البشرى وكما تعلمت فى كلية الحقوق · وكنا فى عصر عظيم رغم كل سوءاته ، وحين دخلت مدينة البنتاغون

وآخواتها لم أكن أعرف أن لوركا قد استوحى نيويورك ديوانا كاملا بعنوان ( شاعر فى نيويورك ) ، وما فكرت قط أن أستلهم عذابها وشجونها · كان مطمحي الوحيد أن أشاهد وأعرف وأعيش وأن أتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسـود · لا أخفى أننى بهـرت رغم ما أحمله من كبرياء الانتمـاء الى أمتى ووطنى وعالمى ، ولكنى فجعت فى لحظة الانبهار الأولى ، وكأننى خدعت حين افتقدت الخيط الأبيض · لم أكن متعصبا ولا شيفونيا ، ومع ذلك عرفت ـ دون سعى منى ـ أننى من عالم آخر ، عالم ربما كان أنقى وأفضل رغم كل شيء ، عالم مسحوق بالأيدى الدموية الناعمة · وفزعت من الواقع ·· من الحقيقـة المتمثلة فى كل وقت أمضيتـه وفى كل مكان ارتدته ·· صرخت :

عالمنا لم يأت بعد ودربنا طويل

فمثل الفراشات تساقط زملائى الذين شـاركونى الدراسة التدريبية حول اللهب الجميل ·· حاولت أن أصـدهم عن التيار الكاسح ·· أن أناشد ضمائرهم ·· أن أقول لهم ·· أصرخ بملء صوتى ·· انه العدو فاحذروه ، ولكنى فى النهاية انحزت الى نفسى وحيدا فى قارب صغير كأننى أبو ذر عصرى ، مقاوما الاعصار حولى داخل قوقعتى المتصلبة ، مشاهدا ومتأملا ·· وكاتبا يحمل هموم لوركا عربى :

الأيـام المائلة
ماذا أخذت منى ؟
ماذا أعطتنى ؟

## أحشـــاء بلادى :

لم أنزف ألما مثلما نزفت حين وجدتنى يـــوم ارتدت مكتبـة أكاديمية الشرطة الدولية التى التحقنا بها نحن الصفوة القادمين من العالم الثالث فوجدت أحشاء بلادنا ٠٠ أسرارها ٠٠ كل المعلومات غير المباحة حتى لأبناء الشعب وقادة الرأى فيه معروضة كبضائع رخيصة فى أرفف المكتبـــة ، حتى هؤلاء الذين يتولون فى بلادهم مناصب تقتضيهم الحفـــاظ على سرية الخطط التى ائتمنوا عليها رموها بالمجان الى السادة الذين منحوهم شرف تلقى الدراســـة فى دولتهم الكبرى ، كأنما كانوا يحملون عبئا ثقيلا فألقوه عن كاهلهم لدى أول دعوة ٠

تذكرت حينئذ ان القائد الذى يرأسنى أوصانى قبيل سفرى من فرط محبته أن أحمل معى البحث الذى كتبته ونلت به المنحة لأقدمه الى أساتذتى بالأكاديمية الأمريكيـــة بعد أن أترجمـه الى الانكليزية ، فذلك يخفف عنى عناء اختيار موضوع جديد للبحث وكتابته بتلك اللغة ٠

يبدو أن هذه الوصية لم تكن لى وحدى ، فهكذا صنع الجميع لم يفرق بيننا الاأنهم أودعوا بحوثهم التى أهدوهاالى مكتبة الأكاديمية أسرار بلادهم فى حين كان موضع بحثى بعيدا عن هذه الأسرار ٠ كانت الخدعة ذكية وبراقة قيل لنا : ان الهدف من بعثتنا هو دعـم الأواصر العلمية والتبادل الثقافى : نحن نمنحكم ما لدينا من خبرات ودراسات وننتظر منكم الاستجابة ، حتى يلتقى الشرق والغـــرب لصالح الانسانية المعذبة ٠ ولأننا فرسان كرماء فقد كان عطاؤنا أضعاف منحتهم ٠ وكانت تلك المنحة قشورا من المعلومات الممزوجة بالأضاليل وتجميلا لوجه « اليانكى » القبيح ، وتشويها لقادة العالم

الثالث في العقدين الخامس والسادس من هذا القرن ( عبد الناصر ، نكروما ، سيكوتورى ، كاسترو كلهم مخربون هدامون ) • كانت تدريبا أيضا على السلوك المتحضر الذى لانكون بغيره جديرين بالانتماء الى العالم الجديد السعيد ، وتدريبا على استخدام السلاح لمكافحة الارهابيين اليساريين أعداء الحضارة الانسانية مثل الفيتناميين ، وكانت حرب الفيتنام على أشدها فى ذلك الحين !!

## مسرح الطاغوت :

مازلت حتى اليوم لا أنسى ماشـــهدت من وحشية العـدوان الأمريكى على الشعب الفيتنامى • كان ذلك فى احدى الليلات الأولى لمقامى فى واشنطن •• تنبهت على أصوات تصفيق وتهليل صادرين من مسكن بالدور الأول فى المبنى • كان الوقت صـــيفا والنوافذ مفتوحة • واذا بى ألمح تلفزيون هذا المسكن الذى التف حوله جمع من الفتيان والفتيات يصخبون ويعربدون ، وهم يشـــاهدون عبر الشاشة الصغيرة طائرات مروحية ( هليوكوبتر ) تلقى من جوفها الى الفضاء بجنود من الشبان الفيتناميين الأسرى مقيدين بالسلاسل •

صيحات الاعجاب الجنونية كانت تتصاعد كلما أسقط مساعد قائد الطائرة واحدا من هؤلاء الضحايا تنفيسا عن الشحنات العدوانية التى نشأ عليها أولئك المراهقون ، وتعبيرا عن مفهوم الانتصار كما تلقنوه • اعتصرنى الآلم والشعور بالعجز والهوان وكراهية الشيطان الطاغية ، حامل لواء الدعوة الى الحرية والديمقراطية وتقرير حقوق الانسان وحضارة العالم الجديد •

اى جريمة ارتكبها شعب آمن بحقه فى الاســـتقلال وارتضى المذهب الاشتراكى نهجا لحياته بقيادة رجل جاء من أنفسهم عزيز

عليهم ، شعب لايربطه بالأمريكى عقيدة أو ثقافة أو لون أو دين ، يعيش آمنا مطمئنا فى قارة أخـــرى تفصلها عن الحدود الأمريكية عشرات الآلاف من الأميال ، ولا ينازع أصحابها فى خيراتهـــا التى لاحصر لها ولا فى طريقتهم فى الحياة ، فيكون جزاءوه أن تطبق عليه سياسة احراق الأرض والعقاب الجماعى ٠

يومئذ جاشت مشـــاعرى فكتبت أول قصـــيدة فى ديوانى ( مدينة الدخان والدمى ) الذى كان حصاد رحلتى الدراسية فى بلاد العم سام اللعين ، معبرا عن وقع ذلك المشـــهد المأســـاوى فى قلبى وفكرى :

وفى مدينة الرخام والرصاص والسحب
تثقب قاع الصمت صرختان
تضج فى الأسماع ضحكتان
لأن طيارا رموا به أعالى البحار
وفوق معبر صـــغير
تطرقه هنـاك طفلة وأم
بين حقول الأرز والثمار
ألقى بحمله الثقيـل
فطهر الغابات والتلال والأنهار !!
ولم يعد
لكنه قد أدرك المحال !!

**بطولة تروى وتذكار لغد !!**

**فى غابة بلا ســـماء**

**مدينة الدخان والنساء والدمى !!**

مازلت أذكر ذلك الحدث الذى غانيته عبر التلفزيون الأمريكى ذات مساء فى واشنطن • مشهد مروع يذكر بالمسرح الرومانى الذى كان يمثل حلبة مصارعة دموية بين الوحوش الضارية الجوعى والعبيد المجلوبين من البلدان الأخرى فى الامبراطورية الرومانيـة القديمـة التى فرضت سلامها على الشعوب ، سلام المقابر القائم على أشـلاء الشعوب ، وخلفتها أمريكا القرن العشرين لتقسم العالم الى مترفين من أرباب الشركات المتعددة الجنسية وتجار السلاح وأذنابهـــم ، وأصحاب أيد عاملة رخيصة تستنزف موارد بلادهم لخدمة السادة الامبرياليين والابقاء على مستوى معيشتهم ودخولهم من الأســـواق الرأسمالية حيث قانون البورصة الربوية الحاكم والفتات للعملاء الطغاة فى العالم الثالث •

**الميراث الدامى وعقدة ( اليانكى )**

ورث ( اليانكى ) ــ الكاوبوى ــ حين هاجر من أوربا مغامرا ومقامرا الى العالم الجديد التقاليد الوحشية الرومانية ، وبدأ يؤسس فردوسه الخاص بجلب الافريقيين من ليبريا التى حولها الى مستعمرة للنخاسة ، وعلى متن السفن فتكت الأوبئة بالآلاف من أبناء أفريقيا المقيدين فى الأغلال حتى لايفروا ، وقتل الذين تمردوا منهم ، وألقى بالجميع فى المحيط الأطلسى طعاما للحيتان • واشتغل الناجون بعد عودتهم عبيدا للأرض البكر • ولقى مصير القتلى منهم الهنود الحمر أهل هذه الأرض الأصليون حين قاوموا ودافعوا عن جذورهم حتى

لاتستأصل ، فدفعوا الثمن دما خصيبا أراد المعتدى أن يسمد به أرض الفئة الباغية .

ولكن هذه الأرض وكل أرض لاتشرب الدم ، فكان الثـــأر والقصاص على أيدى جنود الجنرال جياب فى فيتنام حين دارت على الطاغى امدوائر، ولا ننسى نحن الذين عشنا فى النصف الثانى من القرن العشرين مشهد بقايا الجنود الأمريكيين وهم يهرعون مذعورين ليتعلقوا بعجلات الطائرات التى أقلتهم الى أرض الأحلام المجهضة ، فعاشوا هناك مشوهين نفسيا بعقدة الذنب وبئس المصير .

هذه العقدة الأمريكية هى التى أوحت الى بقصيدة ( الموعد ) وهى على لسان طيار أمريكى عائد من فيتنام :

( من أقرب خطو تقوى البشرية / أن تبلغـــه بشجاعتها / كانوا يلقون الموت الهابط فوق حقول الأرز / أقزام أقوى من كل عمالقة الأرض / اقوى منا نحن جبابرة القرن العشرين / آلهة القمح المسموم / أعداء التنين .

( دمرنا قريتهم .. أهلكناها / غابتهم أحرقناها / وذبحنا كل الأطفال / لكن لم ينم الحزن / لم يطرق أعينهم خوف / لم يطرقها أبدا / ورجعنا لم نهتك حرمات الموتى /ولدوا .. عاشـــوا .. غاصوا فى الأرض / عادوا أحياء / أضعافا أضعافا أحياء / أيديهم ناشـــبة بتراب الحقل / أعينهم ماثلة فوق الظــل / وقواربهم تحدوها الشمس / من خلف سحابات الشرق / ما كانـــوا مرده / كانوا بشرا / دمهم غشى أيدينا / نحن الموصومين / نحن الجبناء المهزومين / جلادى الكلمة / صناع الأحزان ) .

( وعرفت ·· عرفت ·· كيف يذوب الواحد في الكل / تعني البذرة في الشجرة / كيف يموت الإنسان شـجاعا لايخشى الموت / يلقى من شرفات الأفق / مكتوفا لا يلقي كلمه / يرمي قاتله بالصمت / ويعود الى الأرض الأم / وبـل المجـلادي الكلمة / صناع الأحزان / موعدهم عند السور / يوم يموت الافك / تفتح أبواب التنور / ويعيش الانسان / لايخشى الموت ) ·

ويتكرر المشهد المزرى بهيبة ( الياتكي ) الأمريكي بعد عقدين من السنين في لبنان حين هبط جنود ( المارينز ) على أرضه كالجراد ، ليملوا ارادتهم بتنصيب أحد عملائهم رئيسا على شعب الجبل الأشم والأرز السامق والصنوبر · فكان مصيرهم الفرار كالفئران ليلحقوا بالسفن الأمريكية في البحر الأبيض ، يطاردهم الأحرار المناضلون اللبنانيون ، ولاتغني عنهم دولتهم المدججة بأحدث الأسلحة وفلول العملاء شـيئا ·

حين عدت الى بلدي أحكي له ولأحبـابي شـعرا ما رأيت وما عانيت ، كان رد الفعل الأهلي غير الحكومي كما يحدث في أغلب الأحيان ان لم يكن دائما ، فالسلطة في واد والشعب في واد آخر ·· أرسلت بنسخة من ديواني المستوحى من رحلة واشنطن الى الأستاذ صلاح حافظ أبرع الكتاب الصحفيين وأشدهم جاذبيـة للقارىء بمقاله الأسبوعي ( قفـا ! ) وآثرهم عندي كاتبا تقدميـا وروائيا فذا ·· لم يكد يمضي أسبوع أو اثنان حتى كدت أطير فرحا حين قرأت تحت عنوانه الأثير المثير مقالا بعنوان ( لا تقرأ الكتاب من عنوانه ·· حضرة الضابط ) يقول فيه :

( الكتاب اسمه : مدينة الدخان والدمى ، ومؤلفه : ضابط بوليس ! وعلى الصفحة الأولى منه سطور تعلن أن المؤلف كتبه بعد

أن عاد من بعثة فى الولايات المتحدة الأمريكية • ولاشك أن حقيقة كهذه تكفى ، مع اسم المؤلف ، لكى يبحث القارىء لنفسه عن كتاب آخر !! اذ ماذا يمكن أن يكتب لنا شرطى عائد من الولايات المتحدة ؟ وأى موضوع يمكن أن يتحفنا به غير موضـــوع مكافحة الشيوعية ووسائل انتزاع الاعترافات بالقوة من الأبرياء ؟

ولكن القــارىء ما يــكاد يقلب الصــفحة ــ من باب حب الاستطلاع ــ حتى يفاجـــأ بأن ما بين يديه ليس كتـــابا فى الأمن والنظام ، وانما •• ديوان شعر !

ملحمة من ثمانين صفحة ، خلع فيها الضابط ثيابه الرسمية ، وحمل تحت ابطه قيثارا يعزف عليه بأسى شديد •

أودعت ضلوعى كل الناس
حتى اعدائى دخلوا بيتى
ونثرت لهم حبات القلب !

* * *

الحب امرأة من شـــمع
تمثـــال عريان
فى بيت من جـــدران
لايعلوها ســـقف !

* * *

صدئت أذنى بتراب الافك

خذ معزفك الرنان وعـد

يا طيرا لم يتعلم بعـد

أيـن يغنى !

* * *

وعبثا نبحث بين الصفحات عن أثر لرجل الشرطة الذى يحمل الكتاب اسمه .. فاللهجة التى يغنى بها لهجه رجل مطارد، لا رجل يطارد الآخرين . وهو من الصفحة الأولى الى الصفحة الأخيرة يعزف أحزان المضطهدين ، ويتعاطف مع فتى من سلفادور وصديقة من كولورادو، وزنجية من أوهايو.. وأطفال من فيتنام حرقتهم طائرات المعتدين ، وهو يستسلم للأسى حتى فى عناوين القصائد ، فواحدة اسمها « مقبرة كنيدى » .. وأخرى اسمها « فى ليل الغربة » .. وثالثة تختصر الطريق وتحمل الاسم المباشر : « الحزن » ! وكل هذا ليس من طبيعة رجل يمارس السلطة ، وانما هو أقرب الى طباع الذين يفزعون منها .

ولهذا ، فما من قارىء يفتح الكتاب الا ويلح عليه سـؤال مثير : ما الذى حدث للضـابط فى أمريكا وملأ وجـدانه بكل هذا الفزع ؟

وفى سبيل الحصول على جواب لهذا السؤال ، فان القارىء لايملك الا أن يواصل القراءة . وقد يضطر ــ كما اضطررت أنا ــ الى قراءة كل قصيدة أكثر من مرة ، قبل أن يصل الى جواب مقنع .

ولكن ، ما هو هذا الجواب ؟

اذا كان لى أن أثق بحكمى ، وسطور الكتاب نفســـه ، فان مازلزل الشاعر فى أمريكا هو أنه رأى السلطة هنـــاك وقد بلغت أقصى درجات كمالها ، فاذا بها تكف عن خدمة المجتمع ، وتتحول الى قاهر له !

فأمريكا بلاد أتاح فيها المجتمع مطلق الحرية لسلطات الحكم ، وزودها بكل ما تطلب من مال ، وأتاح لهـــا أقصى ما تحلم به من امكانيات مادية وعلمية وبشرية ٠٠ فاذا بها تسيطر بكل ذلك عليه وتطحن ارادته ، وترغمه على ما لا يريد ، وبعد أن كان المواطن الأمريكى سيدا لهذه الأجهزة أصبح عبدا لها ، تقرر هى مصــيره ودوره ٠٠ ومستقبله ٠٠ فهذا يحكم ٠٠ وهذا يموت فى فيتنام ، وهذا يدخل السجن ، وهذا زنجى ، وهذا شيوعى ، وهذا لاتينى ، والجميع فى النهاية أدوات ، وشخوص بلا ارادة ، وعبيد فى يد السلطة التى يتصورون أنها فى أيديهم !

أى شاعر فى الدنيا يفزع من مثـــل هذه الحيـــاة ٠٠ حتى ولو كان ضابطا يحترف ممارسة السلطة ؟

لقد عاد « حسن فتح الباب » من أمريكا فزعا مما رأى ، وخائفا من السلطة بالمفهوم الذى لمسه هنـــاك ٠ فكان طبيعيا وهو يترجم رحلته الى أبيات من الشعر أن يغنى بابهجة الخائفين ، وأن يتعاطف مع الغرباء والهاربين ٠

ولكن ٠٠ هل كان يمكن أن يعود حسن فتح الباب من أمريكا بمثل هذه الأحاسيس اذا لم يكن فى حقيقته شـــاعرا بكل معنى الكلمـــة ؟

وبعبارة أخرى : هل يمكن أن يكتب مثل هذه الكلمات ضابط تنكر في زى شاعر ؟

لا أظن !

فالفزع من سرطان السلطة كما عاد به حسن فتح الباب لايمكن أن يكون فزع ضابط ، وانما هو فزع شاعر حقيقى • فزع رجل ينبض الشعر فى عظامه ولا يحاول على الاطلاق أن يفتعله •

ولأنه شاعر •• فان الايمان بالانسان يجد طريقا بين أبياته من خلال الضباب والأسى •• فهو مؤمن بأنه :

يــوم يموت الافك
تفتح ابــواب التنور
ويعيش الانســـان
لايخشى الموت

ولأنه شاعر ، فان التفاؤل القليل فى أبياته يغلب على الأسى الكثير الذي تنضح به هذه الأبيات ؟

ولأنه شاعر •• فان ما يقوله فى الكتاب لايدل عليه العنوان •• لو اكتفيت أنا شخصيا بالعنوان لما قرأته •• ولكن الذى حدث هو أننى قلبت الصفحة ، وأتحدى كل من يقلب الصفحة مثلى أن يكف عن القراءة قبل أن يبلغ السطر الأخير فى ديوان هذا الشاعر العذب الحزين ••

على الشاطىء الآخر كان رد الفعل النقيض ، وذلك حين عدت الى بلدى ، وفي يدى تقرير عن الدروس التى أفدتها من البعثة قدمته للوزارة التى أوفدتنى الى الخـــارج ، وظننت أننى بذلك أوفى ما طوقتنى به من دين في عنقى ، وأدفع عنى مسئولية التقصير في أداء الواجب ، والظن باننى كما ذهبت جئت أوعدت بخفى حنين . فكأننى امرؤ قيس عصرى :

**لقـد طوفت فى الآفـاق حتى رضيت من الغنيمة بالايـاب !!**

كنت واهما أو خياليا على الأقل ، فقد رفضوا استلام تقريرى ، ووصفنى بعضهم باننى ( على نياتى ) أو متطرف وعنيد لايتعظ ، وسأجلب على نفسى المتاعب وأجلبها عليهم اذا قبلوا ما كتبت كما قال البعض الآخـــر .

قلت : ما جئتكم الا بالحقيقـــة : قالوا : نحن لا أنت الذين ندرك الحقيقة . ولقد صـدقوا !! فحين يحذر رجـــل بنى جلدته ألا ينهبـــوا الى الفردوس فان أهون ما يوصف به هو الحماقة !! فالفردوس الذى وجدته جحيما تتلوى فيه الأفاعى هو من محض خيالى المريض .. وهم وحدهم الذين يحتكرون الحقيقة المغيبة .. ويا أيتها الحقيقة كم من جرائم ترتكب باسمك !!

للكم رأيت وعانيت فى معمل استلاب الفكر وغسل المخ منذ أعوام طويلة .. ولكنه الماضى الحاضر ، فالتاريخ يعيد نفسه وان كان ذلك فى أزياء جديدة .. واليوم فى عصر الجيـــل الثالث أو الرابع أو ... أو ... من التكنولوجيا والعقول الالكترونيـــة وفنون الدعاية والأصباغ الباهرة على وجه من يحملون الأقنعة .. الأنبياء الكذبة ، ماذا تخبئ لنا ( مدينـة الدخان والدمى ) من منح وهدايا وعطايا فى عصر الانسان الآلى والانسان الأول والأخير ؟!!

# وهران وردة اغترابى

وهران ·· هذه المدينة الهادئة الجميلة التى تنبسط شواطئها وسهولها وروابيها مغلفة بالجمال الساحر الوادع على الساحل الجنوبى للبحر الأبيض ، هى قرة أعين الشعب الجزائرى وعروس مدائنه ·· يحدها هذا البحر الحافل بالرؤى والحقائق شمالا وتعانقها مدينة وجدة المغربية فى الجنوب الغربى · أما فى الجانب الشرقى فهى تصافح مدينة مستغانم الجزائرية الواقعة مثلها على المتوسط ، وتقع تلمسان مدينة الحضارة الاسلامية ذات التاريخ التليد فى الجزائر جنوبها ·

وتحظى وهران بشهرة واسعة بالنظر الى موقعها الاستراتيجى فى أقصى الشمال الافريقى على البحر الأبيض ، اذ تواجهها على سواحله الشمالية المدن الفرنسية ، تليها غربا المدن الأسبانية التى ارتبط تاريخ أسطولها البحرى ـ منذ سقطت غرناطة آخر مدينة أندلسية فى أيدى الأسبان سنة ١٤٩٢ م ـ بتاريخ البحرية العثمانية الجزائرية لما جرى بين الفريقين من معارك بحرية ومن هبوط أحفاد

فرديناند وايزابلا ملكى أسبانيا كالجراد أرض الجزائر ، ثم اجلائهم عنها بعد حروب مروعة لم تكن تنطفىء نيرانها شهورا أو سنين ، حتى يشب أوارها بعد حين يقصر أو يطول • فكانت سجالا بين كروفر طوال عدة قرون •

واذا كانت معارك العثمانيين والأسبان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر قد دارت بقصد السيطرة على حوض البحر الأبيض وموانئه فى عصر الامبراطوريات ، فانها كانت فى بعض جوانبها حربا صليبية أخرى شنتها العسكرية الأسبانية تظاهرها أوربا عامة لقص أطراف الدولة العثمانية الكبرى زعيمة العالم الاسلامى فى تلك العصور ، وارغامها على تسليم الراية التى خفقت طويلا على المشرق والمغرب وعلت بلاد البلقان التى تشمل كافة أصقاع وسط أوربا •

ومن ثم كان هذا الصراع الحربى هو الوجه الظاهر للصراع بين ثقافتين متباينتين ، وان كانتا متآخيتين فى نظر الاسلام ومتعاديتين فى نظر الأوربيين ، اذ كانت سبانيا تدين بالكاثوليكية المتعصبة على الرغم من ارتدائها مسوح عيسى بن مريم عليه السلام ، وتدميرها الديار الاسلامية ، باسم الدفاع عن مبادئه ، ونشر ألوتيه، والثأر لهزيمة الصليبيين الغزاة الأوائل فى المشرق ، وولايتهم على المدينة المقدسة فى فلسطين ، ولم يكف الأسبان قضاءهم على الدولة والحضارة الاسلاميتين فى الأندلس ، بل تعقبوا المسلمين النازحين الى الشمال الافريقى بعد أن أخرجوهم من ديارهم واعملوا فيهم سيوفهم ، أو تعقبوهم على السفن التى أقلتهم فأغرقوهم •

وكانت وهران ــ بحكم موقعها المشار أليه آنفا ــ فى قلب هذا الصراع • وطالما وقف أهلها ، بعون من المدن الجزائرية الأخرى، صفا مرصوصا الى جانب العثمانيين ، يدافعون عن مدينتهم هذه

فى حرب وقائية عادلة ، ويصدون جحافل المغيرين والمغامرين البغاة بكل ما أوتوا من قوة وما استطاعوا من رباط الخيل يرهبون بها عدو الله وعدوهم كما جاء فى القرآن الكريم • ويحفل تاريخ وهران وشقيقاتها من المدن الساحلية المتاخمة لها وأهمها تلمسان بأنباء الوقائع الحربية التى استمرت ثلاثمائة سنة كما وثقها المؤرخ الجزائرى توفيق المدنى ، وسفكت فيها دماء عشرات الآلاف من الأنفس وأحرق الحرث والنسل ، وقوض الجناة فى بضعة أشهر أو بضع سنين ما شاده أبناء وهران وتلمسان البررة على أرض الجزائر خاصة والمغرب العربى عامة من حضارة عبر آلاف الأعوام •

## ملاحم وبطولات :

وكانما كتب على هؤلاء الأبناء الوهرانيين جيلا بعد جيل أن تكون نعمة الموقع الحضارى التاريخى الحيوى لمدينتهم نقمة عليهم ، فظلوا فى رباط دائم • وانتقلوا من كفاحهم ضد الخطر الأسبانى الذى انتهى بالاحتلال فى بعض الفترات الى الجهاد فى سبيل استرداد مدينتهم هذه من الفرنسيين الذين خلفوا الأسبان منذ استولوا على الجزائر سنة ١٨٣٠ بعد غزو بربرى غاشم أثيم • وقد أدت وهران دورا مجيدا فى المعارك التى دارت على مشارفها الممتدة من تلمسان بين الفرنسيين وبين الجزائريين بقيادة الأمير عبد القادر بن محيى الدين، هذا الفارس النبيل والمتصوف الورع•

ويروى المؤرخ الجزائرى محمد بن عمرو الطمار فى كتابه ( تلمسان عبر العصور ) الصادر سنة ١٩٨٤ أحداث هذه الحقبة قائلا ان زحف العدو من جهة والفتن الداخلية من جهة أخرى أقلقا أهل العقد والحل من الأشراف والعلماء والأعيان فى الناحية الغربية من البلاد ( تلمسان ووهران ) فألحوا على محيى الدين والد الأمير

عبد القادر في قبول بيعتهم له على الامارة والجهاد ، « فأبى قبول الامارة وقبل القيام بأمر الجهاد . فرضي القوم بذلك ، فالجهـــاد يشغل الناس عن الفساد . ومن ذلك الوقت أخذت الحشود ترد على مقربة من ( القيطنة ) ، فينهض بهم الى وهران . وجزت بينه وبين المعتدين حروب أظهر فيها محيى الدين اقداما وشجاعة فائقــة استحوذت على قلوب المجاهدين » . ثم عقد لواء الامارة وقيــادة الجيوش لولدم عبد القادر ولقبه بناصر الدين . فواصل الجهاد طوال سبعة عشر عاما لا تلين له قناة » .

ولقد كان لوهران شرف التضحية بروح أول شهيد جزائري من بنيها استخدمت آلة المقصلة الجهنمية في اعدامه ـ بعد وقف استعمالها فى أعقاب استقرار الثورة الفرنسية ـ انتقاما من هذا الشاب الفدائى الذى اضطلع ، فى أثناء حرب التحرير التى اندلعت سنة ١٩٥٤ ، بعمل بطولى استشهادى دمر منشـــأة ذات أهمية اقتصـــادية بالغة فى وهران ، وكانت تتبع بالضرورة سـبـــلطة الاحتــلال .

ومن بعد ( أحمد زبانة ) استمرت وهران تدفع ضريبة الدم وتلد الثائر فى أعقاب ثائر ، وكأن الورود التى تكسو حدائقها الغناء مروية بدماء أولئك الضحايا الخالدين .

ومن ثم امتزجت فى الأغنيات الوهرانية سواء باللغة العربية أو بالعامية الجزائرية معانى الفداء بالقيم الجمالية المعبرة عن سحر وهران ، تلك المدينة ذات الصبغة الأوربية التى مازالت عليها منذ غادرها الجنود المستوطنون فى ١٩٦٢ عقب انتصار ثورة التحرير ، فهى تذكر المقيم بها أو الوافد اليها بالمدن الفرنسية الساحلية فى تخطيطها وفى الفن المعمارى لبيوتها ، حتى أن أهلها يرددون حتى اليوم أن شوارعها كانت ترش بماء الورد كل صبيحة . ولكنها

بمدينة عربية في المقام الأول بعد أن استخلصها من براثن الاستعمار عبد القادر الجزائري وزبانه وسائر المجاهدين الأبطال الذين سقط منهم المحـــاربون ومدنيون بلغ عددهم مليونا ونصف مليون من الشهداء الجزائريين ٠

لقد كان الوهراني في أثناء حقبة الاحتلال البغيض غريبا في مدينته ، وكأنه المتنبي في ربوع شعب بوان ، مما يذكر من زارها من الأشقاء العرب في الستينات والسبعينات بقوله :

كـــأن الفتى العربي فيهـــا
غريب الوجه واليد واللســان

اذ غلبت الرطانة بالفرنســية في الحياة اليومية حتى بعد السنوات الأولى للاستقلال ، لوأد اللغة العربية على يد المحتلين ، واغلاقهم المدارس ، وقصر التعليم على المعاهد الفرنسية اللسان ، باستثناء الكتاتيب التي سمحت الســلطات المحتلة لجمعية العلمـاء المسلمين الجزائريين بانشائها ٠ ولما انتصرت الثورة حرصت على أن ينص ميثاقها الوطني ودستورها على أن اللغة العربية هي اللغة الوطنية الوحيدة ، وأنشأت آلاف المدارس والمعاهد التعليمية وعدة جامعات منها جامعة وهران التي تنافس منذ انشائها جامعة الجزائر العاصمة في النهوض الى المستوى اللائق باسترداد الهوية الثقافية العربية ، واستشراف أفق جديد من التقدم الأكاديمي ترقى به الى مصاف الجامعات العربية في المشرق ٠

واليوم تشهد وهران نهضة ثقافية عربية بعد أفول شمس « المفرنسين » ، ذوي اللسان الأجنبي وان كان أحفاد المستوطنين مازالوا يرتادونها سائحين ، ليشـــاهدوا البقاع التي طالما نعم في ربوعها أجدادهم ، ويمضوا يوما أو بعض يوم في المتنزهات التي

كان هؤلاء الأجداد يقضون بها راحتهم الأسبوعية ومازالت آثارهم تدل عليهم ، وليطلوا من « جبل مرجاجو » على مدينة وهران الرابضة تحت سفوحه في دعة وأمن تحت ظلال الحضارة العربية الاسلامية • وربما طاف هؤلاء السائحون حول البيت الذى كان يسكنه في وهران الأديب الفرنسى الحائز على جائزة نوبل ( ألبير كامى ) مبدع رواية ( الطاعون ) التى استوحاها من أحداث جرت في وهران التى ولد بها وعاش فيها حينا من الدهر قبل أن يعود أدراجه بعد انتصار الثورة الجزائرية الى أرض أجداده •

وأشهر العلماء الفرنسيين الذين مازالوا يرتادون وهران حنينا الى العهد القديم حينما كانت هذه المدينة جزءا زاهيا من الامبراطورية الفرنسية ، وليوثق علاقته بالمؤرخين والأدباء الجزائريين المستشرق ( جاك بيرك ) المعروف بتعاطفه من الحضارة الاسلامية عامة والجزائرية خاصة •

**وتشرق الشمس من جديد :**

تتعاقب الأجيال في تواصل حميم ، فتنجب وهران أديبا موهوبا بعد أديب ، مخلفة الكاتب الذى ذاع صيته بعد موته بزمن مديد ، وهو « ابن محرز الوهرانى » صاحب كتابى ( الثغر الجمانى ) و ( مقامات ابن محرز ) ، بطلائع جديدة من المبدعين الذين استلموا علم الأدب من بعده ، فاستأنفوا مسيرته ، كما أضافوا تقنيات حديثة الى قصائد ممدى زكريا شاعر ثورة التحرير الذى قضى سنوات من حياته في زنازين الفرنسيين ابان هذه الثورة ، ومنظومات الشيخ محمد العيد خليفة شاعر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين •

فمن أدباء الآونة الحاضرة في وهران عبد الملك مرتاض وعمار بلحسن وعمار يزلى وبلقاسم بن عبد الله والأعرج واسينى وأمين

الزاوي . وكلهم كتاب قصة ورواية ودراسات ، وقد أصبحوا معروفين بانتاجهم فى مصر وفى سائر بلدان الوطن العربى الكبير ، جنبا الى جنب مع أدباء الجزائر العاصمة وفى طليعتهم الطاهر وطار ورشيد بوجدرة الذى تحول من الكتابة بالفرنسية وكان أحد أقطابها الى الكتابة بالعربية والروائى عبد الحميد بن هدوقة والقاص مرزاق بقطاش .

ومن الشعراء محمد مأمون حمداوي ورفقاؤه من أحفاد رمضان حمود ومحمد العيد خليفة ومفدى زكريا وأبناء الدكتور أبي القاسم سعد الله والدكتور محمد صالح باوية اللذين أسسا حركة الشعر الحر بالجزائر . أما الأديبات والشواعر الوهرانيات ، فقد بزغت مواهبهن على مسرح الحياة الثقافية فى الجزائر خاصة ، وفى عالمنا العربية عامة بعد أن أثرين قصيدة النثر بعطاء خصب . فقدمت زينب الأعوج مجموعتها ( أرفض أن يدجن الأطفال ) ، وربيعة جلطى مجموعة ( تضاريس على الوجه الباريسى ) ، وأم سهام عمارية بلال مجموعتيها ( زمن الحصبان والولادة الجديدة ) و ( من يوميات أم على ) ، وكلها تكوينات ابداعية تنضح عذوبة ووجدا فى تعبيرها عن أشجان هؤلاء الشاعرات فى مجتمع ما بعد ثورة التحرير ، وعن وقع هموم الأمة العربية فى هذه المرحلة التاريخية الحافلة بالنقائض والانكسارات . كما يشى غناؤهن الشجى بآلام الأمومة وذكريات الطفولة . ويكفى للدلالة على ابداعهن الذى قطع شوطا بعيدا على طريق التطور ، أن تعقد مقارنة بينه وبين قصائد الشعراء الجزائريين فى عصر الأتراك العثمانيين مثل قصيدة الشيخ أبى زيد عبد الرحمن التلمسانى فى مديح ( الباى مصطفى بوشلاغم ) بعد أن نهض الشعب فى عهده ، واسترجع وهران من الأسبان ، والتى قال فيها :

وقل وهران يهنيك افتكــاك
وانقاذ من الأسر الشــديد

جزى جيش الجزائر كل خير
اله الخلق ذو الملك العتيــد

هم المســتنقذوك وقد أحاطت
بك الأعداء تطمع فى المزيد

وقــد ظنــوا بأن لهم نجــاة
بمرسى الثغر من بعد الشرود

ولو اغنى التحصــن عن قتيل
وجال السور من قدر المريد

لما فتحت بروجهمو وهــدت
معــاقلهم بصــاعقة الرعــود

وان لم يســجدو لله طــوعا
لقد سجدوا بمنصــلت الهنود

وان فروا ســتدركهم قريبا
بأندلس جنود من أســود

وقصيدة شاعر آخر فى هذا الغرض وتلك المناسبة ذاتها :

ســلام على الجند المؤيد بالنصر
ضراغــم خــلق الله فى البر والبحر

جيوش بها الاســلام عز منــاله
فأصــبح ديــن الله مبتســم الثغر

همو منعوا الاســلام من كل صــائل
وهم قصموا الأعداء بالبيض والســمر

فهذه الأبيات لا تعدو كونها نظما مما كان المعلمون يطرحونه على التلاميذ في موضوعات الانشاء والمحفوظات • يتبين ذلك اذا قرأنا مقطعا من النص الآتي من قصيد نثرى للأديبة عمارية بلال بعنوان ( امنحينى شمسك ياوهران ) • فعلى الرغم من افتقاده عنصر الوزن والقافية ، فقد جاء متدفقا متوهجا بحرارة التجربة ورهافة الاحساس ومتوشحا بالصور التشكيلية المركبة :

أعود اليك ياوهران
أعود الى عيون الطيبين
بحارة ( سيدى الهوارى )
أعود أتسلق ضفائر الشرفات
لأصل الى مشارف ( سيدى عبد القادر )
وفى خلوة الألم
أرى وجهك الحنون
يجترح السـؤال
يعـانق المحـــال
فنابى أن نفترق

* * *

كئوس الجنة المترعة بين يديك
أضواء القمر تتسكع
رغم احتجاج النجوم لديك

هذا جسدي كهف ظامىء
لضـــوئك وشمسك
امنحيني نفسك ياوهران
وخذي مني ما تشائين
ليسري الحب في الشرايين

هكذا نشهد لوحات تشكيلية متتابعة يمتزج فيها تاريخ وهران بالطبيعة الساحرة في شواطئها وجبالها وغاباتها ، ويتأرجح عبير تلك المدينة الزاهية التي يسميها سكانها ( وهران الباهية ) ، وتعد العاصـــمة الثانية للوطن الجزائري ومعقلا من معاقل الجهاد في العصرين الوسيط والحديث ، ومن أحيائها المشهورة حي ( سيدي الهواري ) الذي ورد اسمه في القصيدة ، وهو متصوف له ضريح بذلك الحي ويعتبره أهل وهران شيخا لمدينتهم • ومن معالم وهران أيضا جبل ( المرجاجو ) المطل على المتوسط ويسميه السكان جبل ( سيدي عبد القادر ) • كما ورد في القصيدة أيضا ذكر (الأوراسي) وهو اسم أكبر أسواق البلدة • و ( الكورنيش ) وهو الطريق الممتد على ساحل البحر حيث يرتاده للتنزه ليلا ونهارا سكان الأحياء المجاورة وهو تحفة في جمال التشييد ونضرة الزهور التي تطوقه في حنان •

## أمســـية في وهـــران :

من وحي « وهران » كتبت القصيدة التي تحمل هذا الاسم بعد أيام قلائل من اقامتي فيها بمناسبة سفري اليها للعمل أستاذا بكلية الحقوق في جامعتها في أواخر عام ١٩٧٧ • ولقد أثارت لافتة زرقاء صغيرة على جدار طريق رئيسي ـ كنت أمر به في المدينة لأول مرة ـ

حاملة اسم ( العربى بن مهيدى ) ذكريات ثورة التحرير التى طالما تغنينا بها فى الخمسينات ، مخلدين ذكرى هذا البطل الشهيد الذى لم يملك الفرنسيون الا أن يكبروه ويشيدوا بشجاعته بعد أن عذبوه حتى الموت ، دون أن ينبس ببنت شفة لارشادهم الى مكامن رفاقه المحاربين فى الجبل أو الإدلاء بأسمائهم ، فاعتبروا صموده من الخوارق والأساطير ( والفضل ما شهدت به الأعداء ) ، والقصيدة وردة دم لامتزاج جماليات المكان فيها بذكريات النضال وفداء ابن مهيدى :

ها أنت عائد اليها مرة اخرى
مدينة الحلم التى حملتها فى القلب
غنيت لها فى الفجر
كان الفجر فى زماننا طائرة الصباح
تشتبك الأيدى عليها .. نلتقى
نطفى حرائق الجراح
وكان يأتى كل يوم مرة
يحمل قرص الشمس فى الجبين
نستفتح المسير باسمه الجميل
كان الدم المراق فى حدائق الشفق
ـ والأمهات يستبقن للضفاف
يرتقبن مطلع الهلال
والبنات عودة القمر

أغنية الفرسان والعشاق يا وهران

ياسيدة الغمائم البيضاء

والخمائل الحمراء

وهران يا أنشودة الأمواج والنخيل

يا كرمة رقراقة فى عصرنا العقيم

فى عالمنا البخيل

ياأسطورة التلال

وياعبير الياسمين برء قلبى العليل

وما لبث الماضى أن امتزج بالحاضر فى القصيدة ، اذ تذكرت من خلال تيار الوعى ما كانت تطالعنا به وكالات الأنباء من أخبار ملاحم الفدائيين من أنباء وهران منذ اندلعت نيران ثورة التحرير الجزائرية فى أول نوفمبر ١٩٥٤ ، وتداعت فى خاطرى حين أبصرت اللافتة الزرقاء التى تحمل اسم العربى بن مهيدى ذكرى استشهاده ، تداعت ذكرياتى حين كنا فى مصر نتابع الزلزال الذى هزت به ثورة الجزائر فرنســـا الاستعمارية ، وبطولات المناضلين الذين ناصرهم الأحرار فى كل مكان وتغنينا نحن الشعراء المصريين خاصة والعرب عامة بما كانوا يحرزون من انتصارات ، وهم يغيرون من مكامنهم فى جبال الأوراس على معســـكرات جنود العدو الذين كانوا أضعاف عددهم حتى بلغوا مليون جندى مدججين بأعتى الأسلحة الحديثة .

كنت فى ذلك اليوم البعيد على موعد مع زميـــل عراقى من أســـتذة كلية الحقوق بجامعة وهران لأزوره فى منزله ، وكنت حديث عهد بالمدينة ، فضللت الطريق اليه ، واتخذت مسارا آخر يفضى بى بعيدا الى ضاحية وهران فى حى « المرسى » . وفجأة التقيت

بأحد تلاميذى فأرشدنى الى الطريق الصحيح الذى علت مفتتحه اللافتة التى تحمل اسم البطل الفدائى ( العربى بن مهيدى ) الذى عرفنا اسمه وتضحيته فى الخمسينات التى مضت عليها نحو ثلاثة عقود من السنين • ومن شدة تعلقى بمدينة وهران ، مدينة الفدائيين ، فى ذلك العهد البعيد كنت أشعر أننى زرتها من قبل ، ولكن الزيارة الحقيقية كانت فى ذلك اليوم المشهود وهو ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٧٧ ولم يكن قد مضى على حينئذ الا شهر أو أقل قليلا :

عشرون عاما ثم عدت
طوفت فى الآفاق ما ارتويت
مررت « بالمرسى » ضللت
أنقـــذنى الدليـــل
صحوت فى السوق التى تزاحمت :
لا تبتعد •• هناك عند المنحنى
مفتتح الطـــريق
تألق الحروف والورود باسمه على الجدار
تغدو اشارة المرور ألف نبع
أخضر القرار :
العربى بن مهيدى

* * *

يقول لى الدليل : لم يضره أن يسلخه قبل صلبه
تساقط الوجه النبيل •• اطفئت عيونه

توهج الأوراس ٠٠ لم يفه بكلمة لقاتله

وانتصبت جمجمة سيفا وصخرة ومطرقة

قال الفرنسى الذى أرهقه التعذيب :

لو أننى امتلكت حزمة من الرجال

من معين ذلك القتيل

لسقت هذا العالم الشقى

فى ركاب جيشنا المحاصر الكليل

وانهل نبع ألف نبع أخضر القرار :

العربى بن مهيدى

كانت وهران يومئذ ( نوفمبر ٧٧ ) قد تحولت الى منفـــاى الاختيارى ، وحرمت على نفسى أن أعود الى وطنى الا بعد أن يعود الى أصحابه الحقيقيين الذين يرفضون التطبيع مع العدو الصهيونى الذى اغتصب فلسطين وأراضى أخرى عربية ٠ فاشتد حنينى الى مصر ٠ وسال دمع قصيدتى على أوراق كانت أمامى وأنا قابع فى تلك الأمسية الشاجية فى ركن قصى من مقهى يقع فى شارع العربى بن مهيدى بعد أن عدلت عن زيارة صديقى الأستاذ العراقى :

وفى زحام السوق عند الجامع الكبير

عيونك الواسعة السوداء ياوهران

فى أمسيتى تلامحت

وانتشر الصغار حولى

والنجوم انتشرت

وبللت خدى قطرتان من دموع « ظيبة » التى
هجرتها .. ولم يكن وداع

* * *

كان دليلى فى حديقة الصبا
تحت جناحى طائر نسر قديم
طيرا بلا هموم
يطوف بى بين المصابيح التى تقاطرت
خلف الغيـــوم
بين القباب فى الأعالى والضفاف والنجوم
العمر عشرون ربيعا .. كنته يوما
وكان لى حديقة .. وكان موطن
يعرفه العشاق والفرسان ياوهران
يأتى كل يوم مرة
يحمل قرص الشمس فى الجبين

* * *

حدثنى الربيع فى وهران عن حديقتى
عن زمنى
عن وطنى

## اسكندرية ... وهران

لقد تردد اسم وهران في الشعر العربي خلال الخمسينات التي اضطرم فيها لهيب الثورة الجزائرية ، وورد ذكرها في أول قصيدة استلهمت فيها هذه الثورة وهي قصيدة (شهيد من الجزائر) التي تضمنها ديواني الثاني ( فارس الأمل ) . ثم كانت محور أولى القصائد التي كتبتها في أثناء اقامتي بالجزائر وهي ( أمسية في وهران نظرا للأهمية التاريخية لهذه المدينة ، ولأنني أقمت بها عشر سنين متواصلة . ومن ثم كتبت من وحيها أيضا ثانية تلك القصائد وهي ( اسكندرية ) ، ويمكن أن تسمى أيضا ( وهران ) .

أما السبب في اختياري العنوان الأول دون الثاني ، فيرجع الى أن أستاذا من زملائي الجزائريين قد صحبني يوم ٢٠ يونيه ١٩٧٨ في نزهة على البحر الأبيض المتوسط ألقينا فيها الرحال على ضاحية لوهران تسمى ( عين الترك ) . وما ان بلغناها وجلسنا في احدى مقاهيها المطلة على البحر حتى أحسست أنني عدت الى الاسكندرية للشبه بينها وبين وهران ، فكلتاهما تقع على البحر الأبيض وتحمل قسماتها ظلا من المدن الأوربية ، كما تشتركان في التضاريس اذ تتكون أرضها من مرتفعات ومنخفضات ، على خلاف في ذلك مع المدن المصرية فكلها منبسطة .

أذكر أن شعورا خامرني ودعاني الى المشي على ساحل البحر حيث اتخذت والصديق مكاننا ، وخيل الى أن الاسكندرية التي لم أحب مدينة مثل حبي لها غير بعيدة عني ، وأنني أستطيع أن أصل اليها اذا استمررت في مسيرتي . ففعلت ولم أفق من حلم اليقظة هذا الا على هزة حانية على كتفي من يد رفيق النزهة . فأخرجت ورقة من ردائي وكتبت قصيدة ( اسكندرية ) أو هي التي كتبتني . وقد خط قلمي تحت عنوانها هذه العبارة : ( الى صديقي عبد العزيز العازف الشعبي المتجول على رصيف المتوسط ) .

لقد أهديت هذا الصديق قصيدتي ، لأنه كان أول انسان أرى طيفه ماثلا في مخيلتي حين كنت أمشي على الساحل ، وكأنني استرجعت ذكرياتي مع هذا العازف الشعبي الذي طالما بحثت عنه كلما سافرت من القاهرة الى الاسكندرية ، لأسمع منه أغاني سيد درويش وكان يجيد أداءها • وكثيرا ما كنت أجده يعزف على عوده في مقاهي الاسكندرية المتناثرة على « الكورنيش » ليطرب أسماع روادها نظير دراهم معدودة تطعمه وأسرته من جوع .

لماذا تذكرتك الآن ؟ كل البلاد سواء
و ( وهران ) سيدة الماء والجبل الأخضر المتواري
وراء جياد المساء تجاوى عشيقين يسترقان الثواني
اسكندرية تجتاز دائرة الوهم
مازال قلبي الذي أثقلته الغمائم صفراء
والألق الارجواني
يرصد صوت العصافير بين البدايات والمنتهى
والنهايات والبدء
والرقصة المستباحة بين الأقاحي وبين الموجات
ان الضفاف علينا تشابهت اليوم
كل الصخور التي انقذتنا قديما تنادي
وكل القلاع التي غررت بالمحبين مادت
على الرمل واعتنق الشاطئان
ولون السماء يحاصرنا الآن !!

اسكندرية تخترق الحلم
سيدة الماء وهران فى القلب
أغنيــة لم تتـم
وصبارة من رحيق مصفى
ولكن قلبى طريد
وأنت بعيد بعيد ... وحيد

**وهران تودع بومدين :**

تسقط أوراق كثيرة من شجرة الذاكرة فى خريف العمر ، ولكن هنــالك من الأوراق ما يبقى عليها طوال الحيــاة .. ومن الساعات التى ستظل تخفق كالقلب مهما قدم العهد تلك التى أعقبت علم مدينة وهران برحيل البطل الخالد هوارى بومدين فى أواخر ديسمبر ١٩٧٨ . كان الحزن عميما وعميقا وكبيرا بحجم الانجازات التى حققها بعد أن تولى رئاسة الجمهورية خلفا لزعيم آخر من أبطال ثورة التحرير بعد انقلاب عسكرى قاده بومدين ، ذلك هو الرئيس أحمد بن بللا . لقد رحل بومدين فجأة وهو قرة العيون وملء القلوب . تابعه الجزائريون ومعهم أبناء الوطن العربى فى المغرب والمشرق وهو يطير الى الاتحاد السوفيتى نصير حركات التحرير لعقد صفقة أسلحة أو القيام بمهمة دبلوماسية ، ومنــه الى دمشق حيث أذيع على العالم نبأ مرضه المفاجىء الذى اختلفت فى شأنه الأقاويل .

ما أن أعلن نبأ وفاته حتى زلزلت الأرض زلزالها . ولن أنسى مشهد الشباب الوهرانى وقد اندفع فى تظاهرات ضخمة تسد الشوارع وتغمرها بكاء وصياحا يمزقان القلب . فقد كان

الرجل هو الرمز والتاريخ والأمل فى الغد ، رأيت بعضهم يدقون الجدران برؤوسهم فتتدفق منها الدماء كالنوافير . تذكرت حينئذ يوم تشييع جنازة الزعيم جمال عبد الناصر ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ فى القاهرة .. كان مشهدا رهيبا مثل يوم الحشر .. ملايين جاءت من كل حدب وصوب لتودع البطل ابن مصر وحبيب الفقراء .. كادت الأيدى التى ترتفع لتمسك بالتابوت الذى أودع فيه الجثمان تمزق غطاءه لتحتفظ بذكري من ابن الشعب ، أو لتحول دون دفنه فى التراب كأنه ليس من بنى البشر ، وكأن أبناء البطل يريدون أن يدفنوه في قلوبهم التي شغفت به حبا كما شغفها . هنالك رأى السيد / شعراوى جمعه أن يحمل التابوت فى طائرة حربية حفاظا عليه من أيدى الجموع المتدفقة الباكية التى تشبثت به خشية أن يوارى بعيدا عن عيونها فيكون فراق لا لقاء بعده .

كنت أمارس عملي بمصلحة الأمن العام في ذلك اليوم المشهور وقد أعلنت الحالة ج بمعني حالة الطوارىء ، وشهدت مع بعض زملائي منظر جنازة البطل عبر الشاشة الصغيرة فى جهاز بالمكتب، وكنا نخرج من مقر عملنا الى الشوارع مجموعة بعد مجموعة لمراقبة الوضع ثم نعود الى الوزارة وهكذا . أما أسرتى الصغيرة المكونة من زوجتى وأطفالنا الثلاثة فقد غادروا البيت منذ الصباح الباكر الى منزل ( مدام مارى شيرجيـــان ) أســـتاذة زوجتى فى علوم الموسيقى ، ليتمكنوا من مشاهدة الجنازة من الغرفة المطلة على ميدان باب الحديد . وقد سجلت ابنتى منار ذلك الحدث وكانت فى السادسة من العمر ، وذلك فى قصة كتبتها بعد ذلك بعشر سنين بعنوان ( اللوحة ) وضمتها الى مجموعتها القصصية الأولى ( لعبة التشابه ) . كتبت بأسلوب تيار الوعى فى تصوير لوحة وداع عبد الناصر العظيم :

" « لا أدرى أين ذهبت ·· أين ؟ أمى تشد على ذراعى ·· لم الوداع ؟ ·· وكأن الشرفة ستصير بعد قليل سريرنا ·· منزلنا :· ترى لم جئت الى هنا ؟ لسوف تصعد الرؤوس الباكية وحدها نحوى تتسلق الشرفة ، وأغرق فى دموعهم دون أن أراقب سير الصندوق المغلق بالعلم ·· فلتتحجر قليلا تلك الدموع ، وتصير كنتوءات سور المدرسة المستفز ·· ولأراقب ·

ها هو الصندوق بلون بنى ·· لون الحريق قبل اشتعاله وعند انطفائه·· لون الدم الفاسد من كثرة التخزين فى العروق·· انه يترنح كقارب وسط الأمواج ·· كبؤبؤ كاذب فى عين براقة ·· كبويضة ضائعة فى رحم قابل للعقم، ضيق مطلى بظلمة من الدهاليز البيضاء تسود عند الالتفاتات ··

الرؤوس ضيقت المكان ·· تشبثت بحديد الشرفة فى ذهول ·· انها طوابير أخرى ليست كطوابير كل يوم ·· نمل كبير أرملى عاجز عن الطيران ··· انضمت الجموع فى هيئة أهرامات صغيرة ·· تلون الكون بلون الدماء الوردية الأولى التى تهبط فى جوف الدموع حين تجف ·· يطاردون بعضهم بعضا وراء الصندوق ·· الصندوق يهرب ·· يغوص تختنق آهاته ·· يضعف ·· اتجاهاتهم متضاربة مجهولة مخيفة ·· ضعيفة متكسرة ··

يسقط كفى من كف أمى ·· اختفى فى ظلام حناجرهم ·· خيل الى أن أمى تتأملنى ·· لكن عباءة الموت السوداء كانت تتسرب من بين الأبواب النحاسية فوق الجماهير حين يختفى الصندوق والنجمتان ·· يضيق جفناى ·· تضيق الطرق وجبهات الرمال·· عقارب الساعة تنقلب ·· عيناه اللامعتان أبى ، وجهه ينخفض بالشجن تحنط ابتسامة جمال وكفه الكبير وهو يلوح لى ·· نجمة لى ، نجمة له ، ونجمة مخيفة وهمية فى الأعلى تشده ·

هذا الحديد .. هذا الحديد ! استجلت عند السور .. لوحت للصندوق ، لعله يأتى الى .. كيف استلقى جسد بداخله ؟ ترى ما الملامح ؟ هل صار هيكلا أم ورقا أم حبوبا وطينا ؟ هل يشعر بنا ؟ لعله يستطيع أن يرى من بالشرفات ، لكنه ابتعد ، فى نعش طائر بارز من شرفتنا .. سور الشرفة يتساقط كالوجه .. لوحت للأفواه المفتوحة بالصراخ .. اقتربت منى الوجوه ، وكلما اقتربت كان جسدى يستطيل كالنبات البرى .

وتعود الأمواج المتقلصة من عويل النساء واهتزازات الرؤوس لتأكل ملامح الوجوه والاسمرار .. كفى !! تكاثرت الخطوط فى كفى وتفرعت .. غناؤهم خيام قبلية .. أعناقهم تنحل .. أكتافهم تموج .. كل وحده فى صندوق لا مرئى ، وحده .. تحت العمارات التى تتكاثر .. ولا تتهاوى القصور .

.. ظلوا يسيرون بعضهم بعضا .. تتعارك الأيدى فوق بعضها .. ينحنون .. ينخنون .. شاحبين كالموتى السعداء .. اختفت أرجلهم .. صاروا رؤوسا .. أنجما .. غيبوبة .. صاروا بحرا وسارية .. سحابة صفراء منسية .. موجة .. وجها واحدا كبيرا أنفه شرفتنا .. صرخاته بذور التصدع فى وجه أمى .. فمه الأخرس كنت أنا .. عيناه كل لون يتلون فى أيام مصر .. فى الداخل .. فى الخارج المخيف .. مصر !! عرفتها !! أبى .. أهو أنت ؟ فى كل مغرب بعد أن تعود من عملك المرهق ، تكون عربة المدرسة قد ألقت بى بعيدا عن المنزل لأنى لم أقو على الصراخ كى يقربونى منه ، ثم أنسى .. أنام .. أستمع حفيف كفيك وهما تلامسان ضفائرى .. كنت بين هذه الجموع دون أن ترانى .. ولم أرك .. ألهذا أحببتك » .

لم تكن ( منار ) يوم أمسكت بيد أمها فى الطريق الى مشاهدة جنازة عبد الناصر تدرى أن أباها سينتزعها من أحضان أترابها ومدرستها وبيتها ليطير بها مع والدتها ، فى مساء يوم ٢٢ سبتمبر ١٩٧٧ ، الى ذلك البلد البعيد هناك فى مدينة وهران حيث ستشهد مع أبيها وأمها وقع موت بومدين فى نفوس شباب تلك المدينة . ذلك اليوم الذى صورته فى نفس قصتها من طريق التداعى والارتداد الى الخلف عبر شظايا الذاكرة :

« جلس أبى فى صمت حزين يتأمل بدلا منى ، اقتحمت أمى غياهب العاصمة ( الجميلة ) للبحث عن عمل .. لم توقفها الثرثرات الغريبة .. لعلها - على النقيض منى - قد عرفت شبيهاتها من قبل .. فى المنزل أو فى مصر البعيدة التى كانت وكنت من قبل .. لم أدر شيئا .. لم توقف أمى النافورات المتدفقة .. يسعدنى حينئذ أنها طويلة القامة ، ولكنى فقدت صوتي ، وضاعت حروف الوداع فى جنازة الزعيم .. أحرقنا مراكبنا .. احترقت » .

لكأنما تنبأت البنية بما سيصير اليه حالى بعد رحيل عبد الناصر بسبع سنين عجاف .. فقد هجرت « طيبة » وأحرقت مثل طارق بن زياد مراكبى كأننى لن أعود الى مدينتى يوما ، واحترقت بحسرة الفراق .. وحين مات هوارى بومدين انتبكأ الجرح ، جرح فقد ابن مصر البار . فكتبت في رثائه يوم ٣٠ ديسمبر ١٩٧٨ قصيدتى ( الفارس الذى ترجل .. فى وداع بومدين العظيم ) :

اليوم عبد الناصر الأمين مات مرتين

كى نعيشه ولا تموت ثورته

يستيقظ الآن جميع الشهداء

سيف صلاح الدين لم يعد لغمده
منتصرا عاد ٠٠ وكان الأمس فى الموكب
انى قد رأيت وجهه الصبوح
يخفى دمعتين فى الرداء ثم يحمل ابنه
من ذلك الطود الذى يأتزر الرياح قادما
من العرين ٠٠ من ( معسكر ) التي أودعها
أغانى الرعيان ٠٠ صوت الفقراء المرده ؟
هل دقت الساعة وانشق القمر ؟
بل انه الحزن النبيل وانفجار الموج
فى ( المرسى الكبير » يا بن أمى
يا رفيق دربنـا
ان الفدائيين أقبلوا
اليوم لا غالب الا الله
شـعبنا
قلت الفدائيين عادوا ؟
جاء من أقصي الديار فارس ملثم
يعرفه رضيعنا بالنجمتين فى الجبين المفتدي
يعرفه الصنوبر الجليل والزيتون
والأوراس فى ضوء الشفق
يسقى من النـدى
لترتوى كل البطاح والربى
والسـاقية
قلت : أبومدين ولى

وهوآت
وسـيبقى
أتراه يبتسـم ؟
بل خطبة الوداع يا صديق
ما تراه يسلم العلم ؟
عاش أبومدين للشعب يغنى وهو يجنى
وينادينا اذا عاد من الحرب لنبنى
فلماذا النظرة النجلاء للغرب ؟
لماذا يد أوراس الى القلب تشير الآن
والعالم فى عرس الشهيد ؟

يتهيا لوداع مطمئنا
ما تراها « العـالية »
تلثم منـه المنكبين
وخصلة من مفرقـه

تمسح عن ردائه غبار دربه الطويل
تضـم صدره اللهيف
لهفى لضم الشمل بالأحباب
يا قرة عين الشهداء
ويا امام الراحلين
قد تداعوا :
يا أبا الشعب سلاما لا تغب
لا تبتعد

ها انه جبينه العالى يؤم « العالية »

ليستلم

يدخل محراب المجاهدين .. يبتسم

يكاد ينشد القسم

فلم الروع بعينيه ؟

اخوف من فلول اردة الرقطاء

أن تصحو من الجحور

انصتوا لطيفه على القرى التى تلالات

فى كفه البيضاء

على المصانع التى توهجت بناره الخضراء

لا تجهشوا بدمعكم

تاملوا عاصفة النار كروما تنسكب

والرعد .. صوته البعيد يقترب

فانصتوا :

الليل ، فلنضرب ليبقى الشعب عملاقا

وتزداد الجبال الراسيات

هكذا ودعت وهران بصورتى البطل هوارى بومدين ، وكان فى وداعه وداعا مجددا للمليون وأكثر من شهداء ثورة الجزائر المعروفين والمجهولين .. فقد سكنتنى وهران كما سكنتها ، وكانت عندى رمز الجزائر واحدى قلاعها الشامخة . وقد تحول أولئك

الشهداء الى ورود على خدود أطفالها ، والى أعلام خفاقة فوق ربوعها ومصانعها ومصافي بترولها ومزارعها التى انتزعها المجاهدون من براثن الاستعمار الاستيطانى الشرس • سلاما على وهران والذكريات ، سلاما على مساجدها وأضرحتها وقلاعها وشطآنها السابحة في أضواء الشمس والبحر •• سلاما على أهلها القدامى الأكرمين من علماء وشعراء ومقاتلين في سبيل العقيدة والوطن والحرية •• سلاما على معاهد العلم والصناعة الحديثة •• على كرمها وزيتونها وكل ذرة من ترابها •• سلاما على المدينة التاريخية الجميلة القابعة فى رقة وحنان على ضفاف المتوسط فى الشمال الغربى لعالمنا العربى ، تضفر جدائلها الذهبية فوق الرمال وترتل أنشودة الأجيال •• سلاما على وهران •

# تلمسان بستان الفكر الاسلامى فى الجزائر

من الأحداث الثقافية الهامة انعقاد الملتقى السادس عشر للفكر الاسلامى بمدينة تلمسان بالجزائر منذ السادس من شوال ١٤٠٢ هجرية حتى اليوم الثانى عشر منه (٢٧ يوليـة ـ ٤ اغسطس ١٩٨٢ م) • وكان الموضوع الرئيسى الذى دارت حوله المحاضرات والمناقشات تقويم حصيلة الدراسات الاسلاميه التى أجريت حول السنة النبوية باعتبارها المصدر الثانى للتشريع فى الاسلام ، والرد على افتراءات المستشرقين المغرضين ، ووضع منهج علمى تقوم عليه البحوث الفقهية • وقد شارك فى هذا المؤتمر نحو ألف من العلماء المتخصصين العرب والمسلمين والباحثين والطلاب • وبلغ عدد الأساتذة الجزائريين مائتين وخمسين عملوا جنبا الى جنبه مع المفكرين القادمين من مختلف بلاد العالم • وتناول الملتقى دراسة السنة من حيث تبليغها ، وتدوينها ، والبحث التحليلى لكتب الحديث • وكان المحور الرابع للدراسة فهم السنة والعمل بها ، وذلك فى اطار ما تهدف اليه هذه الندوة التى تقام بالجزائر سنويا من التعريف بالفكر الاسلامى والتصدى للغزو الثقافى الاستعمارى •

ويذكر احتضان مدينة تلمسان لهذا الملتقى ، وكذلك الملتقى الذى عقد بها فى سنة ١٣٩٥ هجرية ( ١٩٧٥ م ) بماضيها التليد فى العصور الوسطى ، اذ كانت مركزا للفكر العربى الاسلامى ومنارا ثقافيا يقصده طلاب المعرفة طوال ثلاثة قرون تقريبا . وكانت تنافس بما بلغته من مكانة مرموقة مدن المغرب العربى ولا سيما فاس والقيروان ، بل مدن المشرق العربى أيضا . وقد هيأ لتلك المدينة العريقة ذلك المركز العلمى والحضارى عدة عوامل ، أهمها ما تتمتع به من موقع جغرافى استراتيجى ممتاز جعل منها مركزا تجاريا وثقافيا كبيرا يربط بين الشمال الأفريقى والأندلس ، وملتقى طريقين من أهم طرق المغرب العربى ، احداهما تصل الشرق بالغرب ، والأخرى تربط بين الشمال والجنوب ، وكانت تعتبر خلال مدة طويلة سبيل الذهب .

وبالاضافة الى هذه الميزات الجغرافية ، فان وفرة أراضيها الخصبة ومياهها العذبة جذبت اليها كثيرا من الأقوام التماسها لطيب المقام والحياة الرغدة ، وان كانت هذه العوامل قد جعلتها مسرحا للصراع فى العصرين الوسيط والحديث بين القوى السياسية المتنازعة ومطمعا للدول الأوربية ، فكانت محاصرة أو مهددة بالحصار فى كثير من الأحيان . وهدمت وأعيد بناؤها فى كل مرة على يد القوة الغالبة لتتخذ منها ركيزة ومستقرا أو نقطة وثوب للتوسع . وهكذا تعددت الممالك والدول التى عرفتها تلمسان ، اذ تعاقب عليها الرومان والادارسة والمرابطون والموحدون والزيانيون والمرينيون ثم الزيانيون مرة أخرى ، وقد أعقبها عصر الاستعمار الفرنسى البغيض منذ نهاية الثلث الأول من القرن الماضى حتى اندثر على يد المجاهدين الجزائريين الأحرار ، واستقلت الجزائر سنة ١٩٦٢ م .

## آثار الحضارة الاسلامية :

ومازالت في تلمسان بعض آثار الحضارة الاسلامية التي ازدهرت بها في عهود الممالك المتوالية . وفي مقدمة هذه المنشآت ذات القيمة التاريخية الاسلامية مساجدها ومدارسها ، وأقدمها الجامع الكبير الذي بناه المرابطون في القرن الثاني عشر الميلادي ، وهو يشبه الى حد كبير مسجد قرطبة في فنه المعماري ولا سيما ساحة الصلاة والمحراب والقبتان . ومن أشهر مساجد تلمسان مسجد بلحسن وهو تحريف اسم ابن الحسن أخي العالم المشهور أبي اسحق ، وقد بناه عثمان بن يغموراسن سلطان الزيانيين ، ومسجد سيدي أبي مدين نسبة الى الفقيه شعيب أبي مدين الأندلسي الأصل اذ ولد في اشبيلية سنة ١١٢٦ م ، ودرس في فارس بالمغرب في عهد الموحدين ، كما درس في مدينة بجاية بالجزائر ، وكان زاهدا متصوفا . وكذلك مسجد سيدي الحلوي الذي بني في عهد المرينيين ، والحلوي هو الشيخ أبو عبد الله الشودي الذي نشأ أيضا في اشبيلية ، وكان قاضيا متصوفا ، طاف في بلاد المغرب حتى استقر في تلمسان في أوائل القرن الثالث عشر . وثمة مساجد أخرى شيدت في تلمسان خلال العصور المختلفة ، ولم يزل بعضها قائما حتى الآن مثل جامع أولاد الامام الذي يرجع الى عهد المرينيين . ولكثرة هذه المساجد تعد تلمسان بحق مدينة المآذن . ولولا ان الاستعمار الفرنسي أهمل شأنها ، ولم يعن الأتراك أيضا بترميمها ، لاحتفظت المدينة بكثير منها .

وتضم مسجد أبي مدين وضريحه ومسجد الحلوي « قرية العباد » التي تقع في الجنوب الشرقي من تلمسان على منحدر هضبة عالية . وهي تزخر بالآثار التاريخية التي خلفها السلطان المريني أبو الحسن لتخليد العلماء والزهاد في عصره ، وليدخل بصنيعه

هذا فى قلوب الأهلين لما عرفوا به من تقدير عميق لأهل العلم والصلاح ، ومن ارتفاع مكانة العلماء عندهم على مكانة الأمراء . وتحوى هذه القرية آثار قصر ومدرسة الى جانب المسجدين والضريح . وقد ووري في مقبرتها كثير من رجال الفقه والتصوف فهى أشبه بمقبرة العالية مثوى الشهداء فى الجزائر العاصمة . بيد أن بعض أهل المدينة ممن لم ينالوا قسطا من التعليم يبلغون فى تقديرهم لأولئك الرجال مرتبة تكاد تقربه من التقديس ، اذ يحسبونهم من أولياء الله ويعتبرون كل ما يصيبهم من نعم من فيض بركاتهم ، ويحتمون عليهم بعد الله فى حماية مدنهم ومنشآتهم . ومن ثم تختلط الحقائق بالأساطير فيما يتعلق بسير هؤلاء الزاهدين ، نظرا لما تنسبه اليهم العامة من أفعال كالخوارق . ولاشك أن انتشار مذهب المتصوفة فى عهد المرابطين والموحدين وسوء فهم العامة للأصول الشرعية قد ساعدا على ذلك . كما أن بعض أصحاب الطرق قد لعبوا دورا كبيرا فى هذا الشأن دعمه المستعمرون وضخموه بعد الغزو الفرنسي ، كما استغله بعض مؤرخيهم المتعصبين فى تشويه الاسلام والمسلمين .

ومع ذلك ، فانه من الثابت تاريخيا أنه نشأت ـ الى جانب حركة التصوف ذات الاتجاهات المعتدلة والمغالية ـ نهضة ثقافية عربية اسلامية كبرى عمت تلمسان وسائر بلاد المغرب العربي ، تدل على ذلك المؤسسات الحضارية التى أشاد بها الخبراء والعلماء الأوربيون غير الحاقدين ، والتى تقع المدارس موقع الصدارة منها . وقد كانت هذه المدارس التى أكثر الحكام المسلمون من بنائها مقصدا لرواد العلم والمعرفة من أهل الأندلس والمغرب ، وبفضلها غدت تلمسان احدى العواصم الثقافية الكبرى . فكان المسجد بمحرابه تجاوره المدرسة بمكتبتها . ولا يخفى الدور الاجتماعى الكبير الذى يقوم به المسجد الى جانب دوره الديني . بل أن الجوامع الكبرى كانت أشبه بالجامعات العلمية كما هو الشأن

بالنسبة للجامع الأزهر بالقاهرة وجامعى الزيتونة فى تونس والقرويين بالمغرب • ومن ثم يحق القول ان مدارس تلمسان كانت محل عبادة ومنجم علماء وفلاسفة ومثقفين فى نفس الوقت • بل ان الزوايا قامت الى جانب المدارس والمساجد بدور فى نشر اللغة العربية والاسلامية ، إذ لم تتعرض لها السلطات الفرنسية بل تركتها لأبناء الشعب ، ظنا بأن اقبالهم عليها من شأنه ان يلهيهم عن الاستعمار ويصرفهم عن السياسية والنضال الوطنى ، فأفاد من ذلك طلاب العلم فى الحفاظ على لغتهم وشخصيتهم .

**مدينـة العلماء :**

ويؤكد الباحثون الأجانب أنفسهم أن تلمسان كانت تعد فى الفترة ما بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر للميلاد مدينة العلماء ، ومجمع المدارس ومزار الحكماء من مختلف أرجاء العالم العربى والاسلامى • وكان لحكامها مآثر غير منكورة فى هذا الميدان ولاسيما فى عهد بنى زيان ازهى عصور تلمسان • اذ كانوا يبنون الى جانب قصورهم مساجد تضاهيها فى عظمة البنيان فى اغلب الأحيـان • كما أولوا دور التعليم والقائمين عليها رعايتهم ، تقديرا لرسالة العلم ، واستجابة لما عرف عن التلمسانيين من اجلال للمعرفة • وقد أوقفوا على هذه المدارس اراضى وحدائق ومطاحن وحمامات للانفاق من ريعها على المعلمين والطلاب وضيانة المبانى • ولم يحل الأصل البربرى لهؤلاء الحكام المسلمين دون تشجيعهم التدريس باللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والحضارة الاسلامية ، واحتفالهم بالمولد النبوى فى قاعة القصر الزيانى بين أبناء الشعب المتجمعين فى حلقات أدبيـة يتبارى فيها الشعراء ويحضرهـا السلطان • ويبرز بين هؤلاء الحكام بصفة خاصـة السلطان يغموراسن الكبير ، اذ كان شغوفا بالثقافة العربية ، مطلعا عليها ، حريصا على حضور حلقات الدراسة فى الجامع الكبير

رغم أنه لم يكن يتحدث الا باللهجة البربرية ، واليه يرجع الفضل في اجتذاب علماء العرب المشهورين الى عاصمته تلمسان .

ومن أهم المدارس القديمة في تلمسان « مدرسة العباد » التي نوهنا بها آنفا، والتي كان ينقطع بها للدراسة الباحثون عن المعرفة ويلقي بها العلماء محاضراتهم . ولم يقتصر بعض هؤلاء العلماء على دراسة العلوم الدينية ، بل جمعوا بينها وبين العلوم الأخرى ، اذ لم يكن ثمة تخصص علمي في ذلك الزمان ، بل كان العلماء موسوعات جامعة حية ، تقاس مراتبهم بمعيار الشمول وسعة المعرفة مع الدقة وحدة الذهن والقدرة التعبيرية . وكان أكثرهم يجمعون بين العلم والعمل الصالح والزهد الذي يبلغ درجة التنسك ، ولا سيما أن النساك كانوا منتشرين آنذاك في ربوع المغرب الكبير ، وقال عنهم مستشرق في دراسة علمية موضوعية « انهم يحسنون التوفيق بين العلم والتخيل وبين التقشف والعبادة » . ومنهم من كان فارسا مجاهدا في الحروب . ولعل ذلك من أسباب الظاهرة التي ذكرناها من قبل ، وهي نظرة البسطاء من الناس الى هؤلاء العلماء الورعين البسلاء بصفتهم أولياء الله ، وأحبابه، وحماة مدينتهم الذين يصدون عنها غائلة المغيرين . وتناقل الناس عديدا من الروايات التي تجمع بين الواقع والخيال في مآثر هؤلاء الرجال الأبطال ، ويكفي أن يذكر منهم « سيدي محمد بن علي » الذي قاد ثورة التلمسانيين ضد الأتراك في القرن السابع عشر .

وقد ذكر المؤرخان ابن مريم والتنسي ( القرن الرابع عشر الميلادي ) في مؤلفاتهما قائمة تضم أكثر من ثلاثمائة عالم عاشوا في تلمسان، وأمسكوا بزمام حياتها الثقافية في العصور الوسطى، ومن بينهم الحافظ بن مرزوق ، وأبو عبد الله الشريف ، وابراهيم التلمودي ، وسعيد العقباني ، وابن ذكري ، والابلي ، ومحمد ابن

عبد الكريم المغيلي ، وابن يحيى الونشريسي . وجلهم تعمقوا في دراستهم الفقهية ، وتوسعوا في العلوم الأخرى ، وصنفوا مؤلفات مازال بعضها يحمل أفكارا لم يتجاوزها عصرنا . ومنهم من شغل مناصب هامة في العواصم العربية القديمة كفاس وغرناطة وتونس والقاهرة ، مثل مناصب الفتوى والقضاء والتدريس .

ويحظى الحافظ بن مرزوق بمكانة خاصة بين هؤلاء العلماء ، وقد عاش بين سنتي ١٣٦٤ ، ١٤٣٨ م ، وعرف على نطاق واسع في تلمسان ، اذ شرح مؤلفات العالم الفيلسوف اليوناني سقراط ، وألف كتابا في الفتوة ، وتخصص في تفسير القرآن ، ونظم قصيدة بعنوان « البردة » . وتدل هذه المؤلفات جميعا على سعة ثقافته .

## ابن خلدون والمقري والسنوسي :

ومن أبرز الشخصيات التاريخية التي عرفتها تلمسان المفكر العربي الاسلامي الكبير عبد الرحمن بن خلدون الذي يعد من العبقريات النادرة في العصور الوسطى ( ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م ) ، اذ وضع لأول مرة أصول فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، وله أفكار تدخل في صميم الفكر الاقتصادي وان لم تشكل نظرية اقتصادية بالمعنى الحديث . وقد تنقل في بلاد المغرب والأندلس، ثم أقام بتلمسان حيث شرع في تأليف مصنفه التاريخي الكبير : « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر » . وقد أتمه وكتب مقدمته الشهيرة ـ على أرجح الأقوال ـ في قلعة ابن سلامة بقرية تاقزوت التابعة لولاية تيهارت بالجزائر ، وذلك بعد ان غادر تلمسان وقبل أن يتوجه الى القاهرة . وهو يذكر أنه خلال اقامته في تلمسان قصد الى مدرسة العباد في ضواحيها، ملتمسا فيها الاعتكاف قليلا والتقاط الأنفاس من عناء رحلاته الطويلة وعبء المناصب الادارية التي تولاها، ومواصلة التحصيل،

وقال في ذلك ما معناه : « لقد توجهت الى مدرسة الشيخ أبي مدين فرارا من الشئون المدنية وطلبا للدرس بقدر ما يسمح لي بذلك » .

ويلي ابن خلدون في الاهمية العلمية لمؤلفاته الجغرافي المؤرخ أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني المعروف بالمقري المتوفي سنة ١٤٠١ هـ ( ١٦٣١ م ) . وكان أديبا مشاركا في علوم الكلام والحديث والتفسير . وقد ولد في تلمسان وتوفي بمصر حيث كان قاضيا . وأشهر مؤلفاته كتابه في تاريخ ممالك الأندلس والمغرب « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ، ومازال يدرس حتى الآن في الجامعات العربية . وله كتاب بعنوان « تعاليق حول مبادىء الحق » . ومن علماء تلمسان الشيخ محمد ابن يوسف السنوسي ( ١٤٢٨ – ١٤٩٠ م ) الذي قال عنه أحد المستشرقين انه قدم للعلم ما قدم ابن خلدون للتاريخ وعلم الاجتماع . وقد أسس تيارا فلسفيا انطلاقا من مبدأ وحدانية الله . ومن مؤلفاته كتاب العقيدة في عدة أجزاء ( العقيدة الكبرى، الوسطى ، الصغرى ، وأخيرا المقدمة ) . كما ألف في علوم الطب والرياضيات والفلك . وقد خلف أكثر من أربعين مصنفا في هذه العلوم وفي المنطق والنحو ، الى جانب العلوم الدينية والتصوف . وهو يعد فخر الفكر الاسلامي في أواخر القرن الخامس عشر . وقد توفي في بلدته تلمسان وله ضريح يزار في قرية العباد . ومن تلامذته عبد الكريم المغيلي الذي توفي في مدينة كانوا ( نيجيريا ) حيث أسس أول جامعة اسلامية في هذه المدينة .

ويقترن اسم الشيخ السنوسي باسم الشيخ أبي عبد الله الشوديسي المشهور بسيدي الحلوي ، اذ كان كلاهما من شيوخ المدرسة التلمسانية العريقة رغم ما يفرق بينهما من فاصل زمني . وقد ولد الشيخ أبو عبد الله ، وأقام في اشبيلية بالأندلس حيث اشتغل بالقضاء بفضل تمكنه من علم التشريع ، واعتنق المذهب

الصوفي . ورحل الى المغرب ثم الى تلمسان في القرن الثالث عشر ، ودفن في مقبرة العباد حيث أقيم له ضريح ومسجد باسمه . وقد عرف عنه أنه من تلاميذ ابني الامام محمد التنسي والشيخ الابلي ، ذلك العالم الذي كان له دور في ترجيح تكوين ابن خلدون . ويروي المؤرخون عن الشيخ أبي عبد الله أنه درس مبادىء المنطق اليوناني والحساب والهندسة والطب والفلاحة والموسيقى . وكان طلب العلم شغله الشاغل . ومن علماء تلمسان الذين جمعوا بين العلوم الدينية والعلوم الأخرى أحمد أبو يحيى الحباك ، اذ تخصص هذا الفقيه في علم الاسطرلاب ( الفلك ) . وترك مؤلفات قيمة مازالت تدرس في الجامعات الأوربية منها « رسالة السفر » وتعليقه على كتاب الفقيه وعالم الرياضيات المراكشي أبي العباس أحمد بن البنـاء ( ١٢٥٨ ـ ١٣٣٩ م ) « تلخيص أعمال الحساب » .

## النهضة العلمية منذ الأدارسة حتى الزيانيين :

لقد ترسم هؤلاء العلماء خطى الرعيل الأول من علماء تلمسان القدامى ابتداء من القرن الثاني الهجري ( الثامن الميلادي ) حينما كانت تحمل هذه المدينة القديمة اسم « أغادير » في عهد الأدارسة الذين بنوا فيها أول مسجد كبير بعد الفتح الاسلامي الذي قاده عقبة بن نافع قادما من مدينة القيروان التي اسسها في تونس ، وجعلوا منها مركزا لنشر مبادىء الاسلام عبر المدن والقرى في المغرب الأوسط ( الجزائر حاليا ) ، ثم أعقبهم المرابطون في أواخر القرن العاشر الميلادي . وقد شهدت تلمسان في عهدهم ـ ولاسيما في ظل حكم يوسف بن تشفين مؤسس دولتهم ـ ازدهارا بعد معاناة وحصار . وكان أول أعماله بناء عاصمته « تاقرارت » في موقع تلمسان الحالي ، واقامة الجامع الكبير ، واجتذبت تلك النهضة التي عظمت في عهد بني عبد الواد

( الزيانيين ) واستمرت من القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر ، أقطاب الفقه والفكر من شتى البلدان · فوفد الى تلمسان الشيخ عمران أبو موسى المشدالى ( ٦٧٠ ـ ٧٠٥ هـ ) ، وكان يدير بها المدرسة التاشفينية ، وهو شيخ مشايخ ابن خلدون ، وكذلك الشيخ اسحق بن ابراهيم التنسى الذى توطن فيها في عهد يغموراسن مؤسس الدولة الزيانية ، وكان يلقى دروسه بمسجدها ·

وبفضل هذا الاضطراد فى المجال العلمى والتعليمى بالمساجد والمدارس ، ابتداء من محو الأمية والوعظ والارشاد ، وبث تعاليم الفقه والتصوف حتى التثقيف بالمعنى العام ، وتواتر العلماء طبقة بعد طبقة فى سلسلة لم تنقطع حلقاتها عدة قرون ، ارسيت تقاليد فى المجال الثقافى والفكرى لم تقو على محوها كوارث الحروب التى لحقت بالبلاد · فكان التلمسانيون يتبعثون بالعلم والعرفان من بعد موتهم فى الدمار ، وكأنما مدينتهم طائر الفينيق الذى ينتفض بين ركام الرماد المحترق ، منطلقا الى الحياة، محلقا فى أجواء الفضاء · ونرى مصداق هذا الواقع الثقافى فى شهادة شاهد من الفرنسيين لا يخلو من التعصب للعهد الاستعمارى والتجنى على العصر التركى ، وهو المستشرق « الفريد بال » ، اذ قال فى عام ١٩٢٠ : « لازالت تلمسان مركز الثقافة · ويمتاز المسلمون فى هذه المدينة بحياتهم الثقافية لا عن سكان الأرياف فحسب ، بل عن مسلمى المدن الأخرى أيضا » · وبعد أن نسب هذا المستشرق الى الأتراك وحدهم مسؤولية ما ران فى عصرهم على بعض المناطق من خمول ثقافى ، متجاهلا الجانى الحقيقى وهو الاستعمار الفرنسى ، استطرد قائلا : « واليوم أيضا ، رغم الضعف الثقافى الناتج عن ثلاثة قرون ، فانه يمكن العثور على عدد كبير من المثقفين المسلمين وبعض العلماء فى تلمسان · وانك لتجد فى أحيان كثيرة بقالا ، أو بائع تبغ ، أو حلاقا ، منهمكا فى

مطالعة نص تاريخي أو أدبي ، أو ديني ، أو جزء من ألف ليلة وليلة أو مجموعة أغان ، ريثما يأتيه الزبائن » .

وقد كان من نتائج هذا المناخ الثقافي الذى ساد البيئة التلمسانية ، أنه رغم المحو الاستعماري المنظم لمقومات الشخصية التاريخية لسكان المدينة ، فقد بقي اتصالها وثيقا بماضيها العربي الاسلامي ، واستطاعت تكوين تراث غني مكنها رغم تلك العقبات والالتواءات من مواصلة حياة ثقافية زاخرة قيمة ، خلعت طابعها التهذيبي على الكثرة الغالبة من أهلها في أوقات فراغهم وفي معاملاتهم ، بعد أن كان ذلك وقفا على طبقة الأثرياء . وقد كان هذا التراث الثقافي هو القاعدة التي شادت عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الصرح التمهيدي للنهضة العربية الاسلامية في الثلاثينات من القرن العشرين ، فشيدت في تلمسان مدرسة باسم « دار الحديث » افتتحها الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس الجمعية، وأدارها من بعده نائبه الشيخ البشير الابراهيمي. وكانت تدرس فيها اللغة العربية ، الى جانب الكتاتيب ، وقد تخرج في هذه المدرسة وتلك الكتاتيب كثير من أبناء جيل الثورة الجزائرية التي اندلعت في الخمسينات .

كما أنشئت في تلمسان بجهود فردية جمعيات دينية ثقافية ، أهمها جمعية أصدقاء الكتاب سنة ١٩٢٦، وكانت مكتبتها مركزا للتنوير وتبادل المصنفات ، وملتقى لطلاب المعرفة ، بل كانت هذه الجمعية أيضا مدرسة للتربية الوطنية ، وبث روح الصمود في مواجهة العدو ، فكان التلمسانيون يقصدونها بحثا عن الوسيلة التي تمكنهم من الاحتفاظ بشخصيتهم العربية الاسلامية ، من خلال الهامش الضئيل الذى تركه الاستعمار ، وهو تعليم مبادىء الدين واللغة العربية ، وذلك قبل أن يستبدل بهذه السياسية نهج القهر والتنكيل . ولقد منحت جمعية أصدقاء

الكتاب الثوري لجمعية أخرى انشئت باسم « أصدقاء الطالب » وكانت مهمتها تقديم المساعدة المادية للشبان الجزائريين الذين وصلوا الى مرحلة التعليم العالى .

واليوم تؤتى البذور القديمة والرعاية الحديثة ثمارها ، فتتضاءل الأمية بفضل التعليم المجانى وتنفيذ خطط التنمية الاجتماعية ، وتتزايد المدارس بمختلف مراحل التعليم ، وينشأ مركز جامعى سنة ١٩٤٧ يضم فى هذا العام ١٧٠٩ طالبا . ويصدق القول ان تلمسان اليوم التى احتضنت ملتقى الفكر الاسلامي مرتين، هى ابنة تلمسان الأمس التى دافعت عن مقوماتها العقائدية واللغوية والثقافية ، وخاضت معارك طاحنة فى سبيل الوطن ، واستحقت – بمن أنجبت من مفكرين وباحثين تجاوزت شهرتهم أرضها الى أرجاء العالم الاسلامى ، بل الى بلدان كثيرة خارج هذا العالم – أن تسمى عاصمة الفكر الاسلامى جنبا الى جنب مع القاهرة وفاس والقيروان والمدن الأندلسية فى العصر الوسيط، ومازالت كذلك حتى اليوم .

## مع الأدباء العرب
## في غابة الصنوبر بالجزائر

مرحى يا أحباب الكلمة يا أبناء الحرف السيف الباقي لنا : حد باتر وحد مثلوم . حين يجف الاكسجين في رئة هذا الوطن المترامي كجناحي نسر قديم تعتريكم رعشة النبوة ، فتميلون فزعين على الجسد المسترخي العاني تنفخون فيه من روحكم ، وتسكبون أنفاسكم حتى الرمق الأخير ليبعث « أوزير » حيا محطما أغلال « ست » شقيقه الطاغوت ... من رماد « الفينيق » ينطلق الطائر المتمرد ، مدويا في صرير أقلامكم ، مفتحا بشباباتها الجفون الناعسة في بساتين الشفق الأرجوانية النجيع !

حين وفدتم الى الجزائر من أدنى الأرض وأقصاها ، هابطين من بطون الطائرات التي لم يعرف بعضكم مقتاما لهم غيرها وغير الفنادق التي تشبه القلاع في علوائها حين عز عليهم الوطن وضاقت بهم الأرض على سعتها ، لم يكن يونس قد شق بعد بطن الحوت ،

وانبجست ينابيع الدفء الانسانى فى عناق اللقاء بمن تعرفون من قبل ، ومن لاتعرفون الا بالأسماء التى صحبتموها أعواما وأعواما . ولكن الهموم كانت تعلو الأسارير ـ كآبة عجزتم عن اخفائهما . سحب النار من الخليج والجبل كانت تلفح جباهكم المريضة . والمر كان المذاق على شفاهكم ، وحفنة رماد من الاحباط من قبل أن تحمل الينا زرقاء اليمامة بشرى انتصار الرجال فى بيروت والجبل .

ما كان أشق على الأنفس أن تتجمع من بعد الشتات لتصاب بقشعريرة البحوث الجليدية الأكاديمية التى ألقت فى اليوم الاول وان بلغ كثير منها مستوى علميا رفيعا ، على حين يشتعل العالم من حولهم ومن فوق أرجلهم ومن تحتهم ، ويفجر أعداء الانسان من تجار الحروب وكهنة الصهيونية والعنصرية النار المشؤومة فى جسد الحضارة المتهالك من كثرة ما عبثت به الأيدى الآثمة ، وفلسطين المحتلة تتوارى عن الأضواء كأنما كان عبثا ما سكبه مئات الآلاف من الشهداء من دماء . ويفغر الوحش الأمريكى فكيه الشيطانيين ليلقف البقية الباقية من عرق الشعوب ودمها فى عالمنا الثالث المنكوب .

هكذا بدأ المؤتمر شاحب الوجه بسبب انفصال عنوانه « الأدب العربى بين الثقافة والاعلام » عن الواقع الحى الذى تعيشه الجماهير وتصلى بحره بل بجحيمه . ولكن اللهب الذى انبعث من خلال المناقشات الساخنة التى أعقبت المحاضرات ما لبث أن كسر أكوام الجليد المتراكمة من القمة حتى السفح ، وجاءت التوصيات التى صادف اصدارها فى التوقيت يوم الغاء اتفاقية ١٧ مايو بين السلطة اللبنانية والعدو الفاشى المتعصب ، لتنزل بردا وسلاما على الأدباء الأفاضل الملتزمين بالدفاع عن أمتهم فى قيمها الانسانية وعن الانسان العانى فى كل مكان .

وفي الكواليس - كالمعتاد - أسفرت الحقيقة عن نفسها لأن الدبلوماسية التي يرتديها أكثر الأدباء في المحافل تذوب أقنعتها الشمعية تحت شمس الظلال • ولا ينفي ذلك أن كثيرا من الحواجز الفاصلة بين القاعة الرئيسية التي ينصب فيها المنبر الكلامي وبين الغرف والردهات التي يلتقي فيها الكتاب والشعراء قد تضاءلت أو تهاوت في المؤتمر ، بفضل الاحساس بالمسؤولية والرغبة في الارتفاع بالتوصيات - وهذا أضعف الايمان - الى مستوى الأحداث التي تفرض نفسها على الفرد العادي • فكيف بالأديب وهو ضمير الشعب كما أعلنت اللافتات العريضة التي طالعتنا منذ هبطنا من مطار هواري بومدين في الجزائر البيضاء حتى فندق ماء الزعفران الذي خصصه البلد المضيف للأدباء ، وقصر الأمم في غابة الصنوبر الذي أقيم فيه المؤتمر •

ما أجمل ذكريات المكان والزمان والاخاء العربي الانساني التي احتقبتها في عودتي الى وهران ، والتي يجمع المؤتمرون دائما في أعقاب كل مجمع أو مهرجان أنها خير متاع الرحلة • ما أجملها مهما شابها من مشاكل التنظيم التي تبلغ حتى ضياع الضيف أحيانا • فهذا المازافران الرائع - هكذا يطلق عليه باللغة الفرنسية تحريفا، ويبقى كذلك بالعربية دون اعادته الى أصله - هو « بيت جحوي » أو قصر « اللابرانت » الذي أقامه أحد الفراعنة في الفيوم جنوبي مصر ليكون متاها لنزلائه • مساحة كبيرة تسع أكثر من ألف حجرة ومرافقها ولكن مخطط المبنى يوجز الغرف الخمسمائة في حيز صغير وفق تنظيم أو لاتنظيم عجيب ، حتى ليصبح بلوغ الجنة عبر الصراط أهون من بلوغ الضيف حجرته • مثل الطفولة المبهورة التائهة في عالم الأساطير كنا نتلاقى ونحن نبحث عن غرفاتنا •• نطوف ما نطوف ويسأل كل منا من لايعرف •• تساؤلات ولا أجوبة •• ونضحك من فرط المفارقات ونحتفظ في ذاكرة الوجدان بقسمات

من نلتقي به لأول مرة عن طول التقاء الوجوه في تخضيلة البحث المضنية بعد ساعات من الاستماع والمناقشة .

.. المسؤول ليس بأعلم من المسائل ، والمنظمون شعراء من شباب الجزائر والغضب جسيم ولا عهد لهم بالتخطيط والتنظيم ، وجزائر الدولة مازالت في بعض المجالات على فطــرة الثورة ، فلا خبرة بالبهرج البروتوكولي لأن العبرة دائما بالمضمون • وبلد الشهداء هي التي فتحت ذراعيها للقاء مؤتمر الشعراء والكتاب بعد بحث مرير عن دولة عربية تحتضنه • ونحن نتعايش مثلي مع أبناء البلد العربي الذي قدم أكثر من مليون شهيد فداء حريته وكرامته وعروبته لابد أن تبحث طويلا وأن تصبر طويلا حتى تعرف فتعذر وتقدر • فعذرا وصبرا يا أشقاء اليمن المكرمين •

هاهو المتوسط أمامنا ، وهو ليس بحر طارق فطارق لن يعود وما كانت الأندلس بأرض عربية فقد انتهى عهــد الامبراطوريات ، ولكنها الرمز والعبرة ، وكم من فردوس مفقود نشهده اليوم وتبكي عصر ملوك الطوائف فقد كان فيهم من عبــاد الله في أرض الله أو اثنان هل أقول ثلاثة ؟ أما اليوم فيا لعباد الله في أرض الله وكم من عبيد • أقصر يا قلب فها هي أذرع الثوار فداء للوطن والأمة والشعب تسد عين الشمس ••

لاتقوى كل مواجد النفس وشواغل العــالم أن تحجب طيف الشاطىء الجزائري على البحر الأبيض ، والنخيل الباسق ، عن عين الشاعر التي تشهده لأول مرة ، ولاعين من يتأمله مثلي مرات ومرات • قد تفتقد يد الانسان الصناع بفن السياحة كمــا نعرفه في تونس أو فرنسا • ولكن الطبيعة الساحرة المسحورة غنية عن مثل هذه اليد • كم من نفس عذبت وفنيت لاستخلاص هذا الساحل المترامي

على مسافة تربو على الألف كيلومتر من براثن الخزاة ! هنا آلاف من شجر الأرز ، أكثر من اسكندرية .. أروع من « الكوت دازير » .. مزيج من سحر البحر الأبيض وروعة الغابات الافريقية والنخلات العربية . فى انتظار الحافلة أن تستقل بركبها تسرح العيون قليلا وتود حين تودع لو تعود . حلم لا أبهى ولا أروع .

عود على بدء فى قاعة نادى الصنوبر ، وتتلى علينا قرارات أمناء اتحادات الكتاب ، فتحظى بالموافقة من طريق التصفيق لمن وقع عليهم الاختيار فى مناصب الأمانة العامة .. لاصوت يعترض فى العلن . انها الديمقراطية اذن تلك التى نحترق لكى تولد مرة واحدة على الساحة السياسية فى كثير من البلدان . ولاشك أن لانعقاد المؤتمر بالجزائر أثرا فى سيادة المناخ الديمقراطى ، وفى التخفيف من حدة قاعدة التوازنات المرعية دائما فى الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ، بحكم طبيعة تشكيل الاتحادات الوطنية التى يتألف منها الاتحاد العام ، تلك الطبيعة التى كان لها أثرها السلبى فى تمثيلنا ــ نحن المدعوين بصفة شخصية ــ باللجان ورئاسة الجلسات وأمانتها والهيئات المنبثقة من الاتحادات والتى عهد اليها صياغة التوصيات . فلم يكن أمامنا الا أن نشترك فى المناقشات العامة وأن نبرق بآرائنا دون أن نرعد . لاضير ، فقد تحقق ماكنا نبغى اذ انعقد الاجماع ، على أن أقوى ما أصدره الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب من توصيات خلال السنوات الأخيرة التى اشتد فيها الصراع واستحكمت الأزمة بعد أن توالت الانهيارات فى البنيان القديم ، ولا شك أن مرجع ذلك الى الأصوات الصادقة الشجاعة الملتزمة بالقضايا العربية والمؤمنة بأن فى مقدور أى شعب مهما قل عددا وعدة أن يدحر أكبر قوة غاشمة اذا أسقط مناضلوه الحاجز الوهمى بين الحياة والموت .. وتلك حقيقة دل عليها تاريخ الجزائر التى عقد على أرضها المؤتمر ، وصفع بهنا المتساقطين والمترددين

أبناء الشعب اللبناني الصغير عددا حين قهروا أعتى القوى ، وما يزال المناضلون الفلسطينيون وسوف يستمرون رغم الحصار الصهيوني يشقون طريقهم الى الحرية بالدم الطهور الغزير .

سلمت درويش بأشعارنا فقد افتقدنا صوتك المرائع المقاوم .. صوت فلسطين أشرف الأوطان .. صـــوت بساتين يافا ونابلس والخليل وجبل الكرمل وساحات القدس ، تسافر اليها عبر معين أجنة التكوين الذى تفجره أشعارك ذات المذاق المر العسلي . أشعارك المرصعة برذاذ النجوم الحمراء .. أشعارك الغزالات الفلسطينية المجنحة .. كنا ننتظرك .. سألنا عنك خالدا ومريدا وأحمد .. سألنا يحيى .. سألنا كل من نعرف ومن لانعرف .. أنت تعانى طيف الدم المهدر الى غير نهاية .. أم تراه الجرح القـــديم الجديد وحزنك على الرفاق الذين يذهبون ولا يعودون ؟

وغابت عنا ـ فبهتت فى عينى وفى قلبى الأضـــواء ـ وجوه حبيبة .. رحل نجيب سرور ولم يشهد مثل هذا المؤتمر مرة واحدة فى حيـــاته ـ وهل يحتـــاج الشعراء الحقيقيون الى مؤتمـــرات ومهرجانات ؟ ـ وأعقبه خليل حـــاوى وتوالت الشهب فى الانطفاء بمثل سرعة الأحداث وايقاعها الكئيب .. صلاح .. أمل دنقل وتكير الفجيعة بموتك يا « بسيسو » أيها الطائر الفلسطينى .. يا شجرة تموت واقفة .. وتعلن نبأ موتك يا « معين » الأسلاك التى تتحول الى أفاع تنهش لحم اخوتك ولا تتأثر كثيرا الأعصـــاب الموهنة ، وتستقبل نعيك بنفس البرودة التى استقبلت بهـــا نبـــأ انفجار الرصاص فى رأس خليل حاوى .

أعزيك أم أعزى نفسى يا « صرور » الألم العظيم ·· مثلك أنا حضورا وغيابا وبيننا جسر رهيف ·· وداعا أيتها المؤتمرات ·· نسيتم أيها القائمون بالأمر فينا فدعينا مرة يتيمة فى مهرجان الشعر الرابع عشر بدمشق ثم تذكرتم فأنســـينا فى اليمن ، وعدتم الى الجزائر فى عامكم هذا فتذكرتم أن تعهدوا الى أدبائها بدعوتنا · وداعا أيها المؤتمرون ·

الأشعة الحضارية المتمثلة في الشعر والقصة والمسرحية . وقد تجلت هذه الظاهرة في الجزائر بوجه خاص لابتلائها في ذلك الحين بأبشع صنوف الاستعمار ، وهو الاستعمار الاستيطاني الفرنسي الذى لم يقتصر على فرض القهر الاقتصادى والسياسى على أهلها ، بل تجاوزه الى القهر الثقافي ، بما اتخذه من تدابير جائرة لمسخ شخصيتهم واضطهادهم في عقيدتهم الدينية وفى لغتهم وفى تراثهم الوطنى الأصيل وفى نظمهم الاجتماعية ، مستهدفا بذلك تجريدهم من مقوماتهم الأساسية التى تقف حائلا بينه وبين ادماجهم واذابتهم فى كيانه ، ومن ثم يسهل ترويضهم وتسليمهم بالواقع الاستعمارى ، وتحويلهم فى نهاية المطاف الى أدوات طيعة لأغراضه ، واستنزاف خيرات أرضهم التى بذلوا فى سقياها عرقهم بل دمهم ، فيغدو هو المالك المتسلط ، ويغدون العبيد المحرومين الغرباء فى ديارهم .

بيد أن هذه الصورة الواقعية المأساوية لم تحل دون اطلالة وجوه رائدة مشرقة من مصر العربية على الأفق الجزائرى .. كما تتطلع الفروع الى الفروع انطلاقا من انتمائها الى دوحة واحدة أصلها ثابت عريق ، أو كما تحن الأشلاء الى الالتئام فى الجسد الواحد . وهكذا كانت زيارة الامام الشيخ محمد عبده الى تونس والجزائر سنة ١٩٠١ م . ولم يمض غير عقدين من السنين حتى وفدت الى أرض الأوراس أول فرقة مسرحية عربية ، وهى فرقة جورج أبيض وذلك سنة ١٩٢١ ، وكانت تضم حسين رياض وعباس فارس ، وقدمت مسرحيتين لنجيب حداد هما ( صلاح الدين الأيوبى ) و ( ثارات العرب ) ، اقتبس الأولى من رواية ( الطلسم ) للشاعر الانجليزى والترسكوت أمير الشعراء الرومانسيين فى القرن التاسع عشر ، وأدخل عليها من التعديلات الكثيرة ما جعلها توائم التاريخ العربى وتثير فى الأنفس ذكرى أمجاده القومية والانسانية . أما الرواية الثانية فقد اقتبسها حداد أيضا من رواية ( العمدة )

# ذكريات مصرية جزائرية

★ ليلة التقي حفيد البطل الجزائري الأمير عبد القادر بجورج ابيض في باريس •

★ فاطمة رشدي ويوسف وهبي على ارض الأوراس •

★ من حلقة المداح في الأسواق والزوايا الى خشبة المسرح •

★ تونس تنازع مصر في اســـتنبات البذور الأولى للفن الرابع في الجزائر •

★ بالمسرحية الضاحكة واللهجة العامية افلت رشيد القسنطيني من الرقابة الاستعمارية •

ارتبط المسرح العربي بالجزائر فى نشأته الأولى بالمسرح العربى فى مصر ، وتلك احدى الظواهر التاريخية المضيئة فى العلاقات بين أقطار العالم العربى فى المشرق والمغرب ، اذ استطاعت الشعوب فى اوائل هذا القرن أن تنفذ من ظلمات الاستعمار لتلتقى عبر كوى من

الأشعة الحضارية المتمثلة في الشعر والقصة والمسرحية . وقد تجلت هذه الظاهرة في الجزائر بوجه خاص لابتلائها في ذلك الحين بأبشع صنوف الاستعمار ، وهو الاستعمار الاستيطاني الفرنسي الذي لم يقتصر على فرض القهر الاقتصادي والسياسي على أهلها ، بل تجاوزه الى القهر الثقافي ، بما اتخذه من تدابير جائرة لمسخ شخصيتهم واضطهادهم في عقيدتهم الدينية وفي لغتهم وفي تراثهم الوطني الأصيل وفي نظمهم الاجتماعية ، مستهدفا بذلك تجريدهم من مقوماتهم الأساسية التي تقف حائلا بينه وبين ادماجهم واذابتهم في كيانه ، ومن ثم يسهل ترويضهم وتسليمهم بالواقع الاستعماري ، وتحويلهم في نهاية المطاف الى أدوات طيعة لأغراضه ، واستنزاف خيرات أرضهم التي بذلوا في سقياها عرقهم بل دمهم ، فيغدو هو المالك المتسلط ، ويغدون العبيد المحرومين الغرباء في ديارهم .

بيد أن هذه الصورة الواقعية المأساوية لم تحل دون اطلالة وجوه رائدة مشرقة من مصر العربية على الأفق الجزائري . كما تتطلع الفروع الى الفروع انطلاقا من انتمائها الى دوحة واحدة أصلها ثابت عريق ، أو كما تحن الأشلاء الى الالتئام في الجسد الواحد . وهكذا كانت زيارة الامام الشيخ محمد عبده الى تونس والجزائر سنة ١٩٠١ م . ولم يمض غير عقدين من السنين حتى وفدت الى أرض الأوراس أول فرقة مسرحية عربية ، وهي فرقة جورج أبيض وذلك سنة ١٩٢١ ، وكانت تضم حسين رياض وعباس فارس ، وقدمت مسرحيتين لنجيب حداد هما ( صلاح الدين الأيوبي ) و ( ثارات العرب ) ، اقتبس الأولى من رواية ( الطلسم ) للشاعر الانجليزي والتر سكوت أمير الشعراء الرومانسيين في القرن التاسع عشر ، وأدخل عليها من التعديلات الكثيرة ما جعلها توائم التاريخ العربي وتثير في الأنفس ذكرى أمجاده القومية والانسانية . أما الرواية الثانية فقد اقتبسها حداد أيضا من رواية ( العمدة )

لفكتور هيجو فيما يذهب بعض الباحثين النقاد والمسرحيين • وقدمت المسرحيتان باللغــة العربيــة التي كان يحرص جورج أبيض على استعمالها كل الحرص ، حتى يروى عنه أنه لم يكن يغتفر للممثل من فرقته لحنا مهما صغر في اللغة نحوا أو صرفا أو نطقا •

## وأول الغيث قطر ثم ينهمر

توالت من بعـــد ذلك الفرق التمثيليـــة المصرية على المسرح الجزائرى ، فوفدت فرقة عز الدين في عام ١٩٢٢ ، ثم فرقة الممثلة اللامعة فاطمة رشدى نجمة المسرح فى ذلك الزمان وذلك ســـنة ١٩٣٢ ، واستقبلت الجزائر فى سنوات ١٩٤٧ و ١٩٥٠ و ١٩٥١ و ١٩٥٢ يوسف وهبى على رأس الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى ، وكان من أعضائها البـــارزين زكى طليمات ، وقد بلغ عددهم فى الزيارة الثانية أربعين عضوا • ويكاد المؤرخون الجزائريون المعنيون بالأدب والمسرح يجمعون على أن جولة جورج أبيض لم تلق النجاح المنشود ، ويعزو بعضهم السبب فى ذلك الى ضحالة الثقافة الفنية لدى الجمهور مما أدى به الى ضعف تذوقه واستساغته للمسرحيات الوافدة ذات المستوى الرفيع • ولكن هؤلاء الباحثين يستثنون من هذا الجمهور فئـــة جد قليلة هم المعلمون والطلاب ، لم تقف جدة الفن المسرحى وغرابة ما يقدم منه دون تجاوبهـــم معه • ويبقى لجورج أبيض فضل الريادة باستنباته أول بذرة فى حقل المسرح العربى بالجزائر • على أن الأهم من تجاوب النظارة المحدود ـ فى مجال التأصيل لنشأة ذلك المسرح برده الى الينابيع الأولى ـ هو تأثـــر أول مؤسس جزائرى لهذا الفن وهو الأمير خالد بجورج أبيض ، منذ التقى الرجلان فى باريس عام ١٩١٠ • فلا ريب فى أن هذه اللقيا قد أثمرت بعد ذلك باحدى عشرة سنة تلك الزيارة التى قام بها للجزائر رائد المسرح المصرى •

وكان من شأن لقاء حفيد البطل الجزائرى الأمير عبد القادر بجورج أبيض وتأثره به تفكير الأول فى انشـــاء مسرح فى بـلاده وانجازه هذا المشروع أو الحلم فى صورة بدائية أو جنينية • وقد أطلق الأمير خالد على الفرقة المسرحية التى أنشأها اسم ( جمعية الآداب والتمثيل العربى ) ، وقد ظهرت الى النور فى نفس العام الذى زارت فيه فرقة جورج أبيض الجزائر وهو عام ١٩٢١ ، وسعت دون أن تحقق نجاحا ذا قيمة الى تحقيق الهدف ذاته وهو ايقاظ وعى الفئة المثقفة ـ أيا كان مستوى هذا التثقيف واقترابه من التعليم العام ـ كى تدرك أهمية المسرح ورسالتـــه فى التغيير الاجتماعى ، دون الذهاب الى تحريضها بأسلوب مباشر أو غير مباشر على الكفاح الشعبى المسلح الذى مارسه الجزائريون بعـد ذلك بثلاثين عاما ، اذ لم يكن الأمير خالد قائدا ثوريا بل كان داعية من دعاة الاصلاح ، ولم تكن الظروف قد نضجت بعد لانشاء مسرح سياسى يفتح العيون على المظالم التى كان ينوء تحت ثقلها الشعب الجزائرى ، ويحث على الجهاد فى سبيل اجلاء المستعمر الغاصب • ويتبين هذا الاتجـــاه الأخلاقى جليا فى النصوص التمثيلية التى أدتها الجمعيات المسرحية المتجولة التى أسسها الأمير خالد ، وهى رواية ( ماكبث ) لشكسبير بعد تعريبهـــا ، ورواية ( المروءة والوفاء ) لخليـــل اليازجى ، و ( شهيد بيروت ) وهى تمثيلية شـــعرية قصيرة محدودة الأحداث والشخصيات وعمادها الحوار ، وقد ألفها شاعر النيل حافظ ابراهيم •

وقد جاء فى محاضرة ألقاها الفنان المسرحى المخضرم الأستاذ محمد اسطامبولى فى ١٦ مارس ١٩٨٢ بمدينة الجزائر العاصمة ان هذه التمثيليات قد تلقاها الأمير خالد من جورج أبيض بناء على اتفاق بينهما مذ التقيا بالعاصمة الفرنسية ، فى حفل أقيم بمناسبة حصول هذا الفنان المصرى الجنسية اللبنانى الأصل على اجازة الكونسرفاتوار من معهد باريس ، وأن خالدا قد أسس ثلاث فرق مسرحيـــة فى

الجزائر والمدية والبليدة ، تعد النواة الأولى للمسرح الجزائرى • ويذهب الباحث الى أن المسرح قد ظهر فى الجزائر قبـل الحرب العالمية الأولى ، اذ كانت هنالك فرق تتجول فى الأسواق والزوايا • بيد أن ثمة مغالاة فى هذا الرأى ، اذ تثبت الدراسة التاريخية المعمقة أن الشكل المسرحي الذى يشير اليه الأستاذ اسـطامبولى لم يكن الا امتدادا متطورا لصورة « المداح » الذى يروى الحكايات والنوادر فى الأسواق وهو واقف بين روادها ، أو فى الحفلات التى كانت تقام فى الزوايا ، أو لصـورة الفـرق الشعبية التى كانت تدعى ( القوالة ) وتقتبس فنها من ( الدراويش ) وتعقد حلقاتهـا فى ضرائح الأوليـاء •

بيد أن الصحافة التونسية قد نشرت حديثا مقالا ينازع الفرقة المصرية فضل السبق فى غرس أول بذور المسرح فى الجزائر وان كان الأسبق بين الأشقاء فى تبادل المعطيات الحضارية ، وذلك على خلاف ما أثبته ثلاثة باحثين جزائريين متخصصين فى هذا الموضوع وهم الكاتبان والممثلان المسرحيان علالو سلال علي والمشهور باسم علي ومحيى الدين بشتارزى والباحث الجامعى سعد الدين بن شنب : فى كتاب ( فجر المسرح الجزائرى ) الذى أصدره الأول سنة ١٩٨٢ ، ومذكرات الثانى سنة ١٩٦٨ فى جزئها الأول والدراسة التى نشرها الثالث بالمجلة الافريقية أخيرا ، وكلهم يجمعون على أن المسرح العربى فى الجزائر كانت بدايتـه عام ١٩٢١ على يد جـورج أبيض الذى لم تعرف جولته نجاحا كبيرا ، ولكنها حفزت بعض الأدباء وأقلية من طلاب المدارس الى محاولة انشـاء مسرح باللغـة الأدبيـة فى سنة ١٩٢٢ •

أما منصف شرف الدين كاتب المقال المنوه عنه فيقول انه الجمـهور الجزائرى قد تعرف أول مرة على المسرح العربى فى الفترة من ٢٦ فبراير الى ١٤ مارس سنة ١٩١٣ حينما وفدت الى

الجزائر ( فرقة الأدب التونسية ) التى أسسها فى تونس قبل عامين من ذلك التاريخ ثلاثة مثقفين غيورين على التراث العربى الإسلامى وهم : حسن قلاتى المحامى المنحدر من أصل جزائرى وهو رئيس الفرقة والشاذلى قسطلى وعلى حرمى . ويقدم الكاتب تأييدا لما ذهب اليه — صورة رسالة منسوبة الى الحاكم العام الفرنسى للجزائر وجهها الى الأمين العام للحكومة التونسية فى ٢١ فبراير ١٩١٣ ، ردا على طلب الترخيص لهؤلاء الثلاثة بالقيام بجولة مسرحية لفرقة الادب التى يشرفون عليها عبر الجزائر ، وافادته فى هذا الطلب أن المحامى المذكور طرد من التراب التونسى الخاضع للوصاية الفرنسية سنة ١٩١٢ ثم اعفى عنه منذ ذلك الحين ، وأن عضوى الفرقة الآخرين يهدفان من زيارة الجزائر الى القيام بدعاية اسلامية ولهما مواقف مريبة — يعنى بذلك تحريضهما على السلطة — ابان الأحداث التى جرت فى تونس العاصمة سنة ١٩١٢ ، ومن ثم لا حاجة الى نصحكم — الخطاب موجه من أمين الحكومة التونسية — بوضع الجميع خفية تحت الرقابة .

ويستطرد الكاتب التونسى قائلا ان الممثل الاستعمارى فى الجزائر قد وافق بعد تردد على تلك الزيارة ، وان الفرقة قدمت على المسرح فى أربع مدن جزائرية هى العاصمة وتلمسان والبليدة وقسنطينة ثلاث مسرحيات — كاملة أو فصولا منها — وهى : ( صلاح الدين الأيوبى ) و ( أوتيلو ) و ( الطبيب رغما عنه ) . ثم كتب الحاكم العام للجزائر الى المقيم الفرنسى فى تونس ان أعضاء الفرقة لم يصدر منهم فى أثناء تجوالهم ما يثير الريب ، وان كانوا قد دأبوا على الاتصال بالمسلمين طوال هذا التجوال . على أن المشكلة التى يثيرها التحقيق الذى نشره منصف شرف الدين هادفا منه الى اعادة النظر فى وقائع تاريخية بلغت

مرتبة الحقائق المسلم بها ، هى قوله ان الاستعمار الفرنسي قد حفظ الوثيقة المشار اليها طى الكتمان ، طمسا للنجاح الذى حظيت به في الجزائر فرقة الأدب التونسية ، كما يستدل عليه من شدة إقبال الجمهور عليها للكثرة التذاكر التى بيعت فى المدن الأربعة .

١ . وتلكمن المشكلة الحقيقية فى طرح السؤال الهام الآتى : كيف نفسر ما جاء به الكاتب التونسى فى شأن حظوة الفرقة التونسية لدى الجمهور الجزائرى ، وذلك فى ضوء ما لقيته الفرقة المصرية من ضعف الاقبال عليها أو التجاوب معها من لدن هذا الجمهور نفسه بعد ذلك بنحو ثمانية أعوام رغم أن الأسباب التى أدت الى هذا الضعف لم تكن قد زالت بعد ، ونعنى بها ما أكده الباحثون الجزائريون فى أعمالهم الدراسية المنشورة من عجز الشعب عامة فى أوائل القرن عن فهم الحوار المسرحى المقدم بلغة عربية أدبية ، فضلاً عن ما ذكره ( أرليت روث ) فى كتابه ( المسرح الجزائرى ) من الاعراض عن المسرح لأسباب تتصل بالعقيدة الدينية ، وان كان هذا الرأى مبالغا فيه ، ذلك أن المجتمع الذى فرضت عليه الأمية والابادة الثقافية التى لم يكف الاستعمار يوما عن ممارستها كان متشبثا بتراثه الثقافى واللغوى ، ولم يعدم بين صفوفه من يجاهد فى عناء لفهم المسرحيات المعروضة أمام أنظاره بالعربية الفصحى واستيعاب مضامينها كما يردد ( علالو ) فى كتاباته ومحاضراته .

ومن ثم يخلص كتاب التاريخ المسرحى فى الجزائر الى أن المسرح العربى الوافد من المشرق ( مصر ) يمثل المنبع الأصيل للمسرح فيها ، فلولاه لما عرفت هذا الشكل من الأشكال التعبيرية الدرامية ، باستثناء ذلك الشكل البدائى المعروف باسم مسرح القراقوز القائم على التعبير الشفوى الشعبى ، والذى شاع فى بعض المدن الجزائرية واستمر قائما حتى عام ١٨٤٣ ، وهو

التاريخ الذي حظرت فيه السلطة الاستعمارية ممارسة هذا النشاط وكان قد مضى على غزو الجزائر واحتلالها ثلاثة عشر عاما، ولم يكن العالم العربي ( في لبنان وسورية ومصر ) قد اكتشف بعد المسرح في ذلك الحين ، بل وقع ذلك بعد خمس سنوات من العام المذكور بفضل ترجمة مسرحيات أوروبية أو اقتباسها واخراجها مثل مسرحية ( البخيل ) التي ترجمها ( مارون نقاش ) بعد اقامته زمنا في أوروبا ثم عرضها على المسرح .

ولا يعير الباحثون جمعية الآداب والتمثيل العربي التي أنشأها الأمير خالد سنة ۱۹۲۱ وبنا بها المسرح العربي الجزائري اهتماما كبيرا ، وان كانت قد عرضت خلال أربع سنوات ثلاث مسرحيات من تأليف رئيسها علي شريف الطاهر ، من بينها مسرحية عنوانها ( خديعة الغرام ) كما جاء في بحث للدكتور أبو العيد دودو ، وذلك بالنظر الى السذاجة التي اتسمت بها تلك المسرحيات نصا وتمثيلا . وكانت تلك المسرحيات ـ حسبما قاله الدكتور عبد المالك مرتاض في كتابه ( فنون النثر الأدبي في الجزائر ) ـ تعالج موضوعات اجتماعية غالبا ، كمشكلة اهمال الخمر وما ينشأ عنها من مضار ، أما المسرح بمعناه المتعارف عليه فقد بزغ الى الوجود سنة ۱۹۲٦ بعرض مسرحية ( جحا ) التي ألفها بالعامية علالو ودحمون ، وقد أعيد عرضها مرارا لما لقيته من اقبال دل على تذوق النظارة . وقطع المسرح العربي بالجزائر شوطا آخر على يد رشيد القسنطيني الذي كان يؤلف باللغة الدارجة أيضا ، ومحيي الدين باشتارزي الذي كان يقتبس من المسرح العالمي ويصوغ النصوص بالعامية مثل علالو ورشيد .

ويعد رشيد القسنطيني رائد الفن المسرحي الشعبي بالجزائر بفضل موهبته الكوميدية الفذة ، وقد عرف هو وعلالو بتقديم الشعر الهزلي في شكل ( اسكتشات ) مصحوبة بعزف موسيقي وأغاني

أندلسية ، مما كان يخلب أسماع المشاهدين وألبابهم ، لأن كثرتهم لم تنل حظا من التعليم يتيح لها تذوق الأعمال الدرامية والنصوص المؤلفة أو المترجمة باللغة الفصيحة • وقد كتب رشيد القسنطيني عددا كبيرا من المسرحيات ، واليه يرجع الفضل في ازدهار المسرح الشعبي ، وان لم تكتمل عنده عناصره طبقا للمفهوم الحديث لهذا المصطلح •

وفي رأي الباحث الجامعي محمد الأخضر بركة أن مسرح القسنطيني كان محصورا من حيث المكان والجمهور والمضمون على المدينة ، فموضوعاته تتعلق بسكان المدن وعاداتهم وأخلاقهم ، وأنه لا يمكن — في معرض تقييم أعمال هذا الرائد — الحديث عن مسرح وطني ذي أبعاد سياسية ، باستثناء بعض المحاولات المحدودة والتي كانت وراءها ظروف مؤقتة • وهذا القول يناقضه بوعلام رمضاني بقوله أن رشيد القسنطيني عرف كيف يوظف طاقته الابداعية القائمة على الأسلوب الساخر تخطيا للرقابة الاستعمارية ، اذ يعتمد على شكل مسرحي يوهم أنه يستهدف التسلية والترفية • كما عرف — ومثله الفنان المسرحي محمد توري ( ١٩١٤ — ١٩٥٩ ) — كيف يخلق نوعا من العلاقة الروحية بين المسرح والجمهور ، بتوظيف اللهجة العامية كسلاح للنضال السياسي ، اذ وجد أنها الأسلوب الأسلم والأمثل لتحقيق الهدف ، فقد كان أكبرهم الاستعمار الفرنسي تذويب رمز الشخصية الجزائرية وهو اللغة العربية • وكان استخدام تلك اللهجة ضرورة أيضا بالنظر الى أمية الجمهور ، مثلما كان الأمر فيما يتعلق باستخدام المسرح الهزلي لبلوغ غايتين هما اجتذاب هذا الجمهور ، والتحايل على السلطة المفتوحة العيون على الوطنيين والمتحفزة بهم والزج بمن ترتابه في أمره في السجون والمعتقلات •

واذا كان محيي الدين باشتارزي يقتسم مع رشيد القسنطيني السبق في ادخال المواقف الغنائية في المسرحيات التماسا لتجاوب الجمهور سواء أكان الغناء فرديا أم جماعيا • فان القسنطيني ينفرد بادخاله أول مرة العنصر النسوي في التمثيل ، مما يدل على وعي اجتماعي يندر في تلك الحقبة التاريخية لخروجه على التقاليد الصارمة السائدة •

والى جانب المسرح الشعبي نشأت في خط متواز فرق تمثيلية تنضوي تحت جناح جمعية العلماء الجزائريين المسلمين التي أسسها الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة ١٩٣١ • ومن ثم كانت رسالة هذه الفرق تعليمية دينية ثم تطورت فاتجهت الى التوعية السياسية غير المباشرة ، موازكبة في ذلك انبعاث الروح الوطنية والدعوة الى مناهضة الاستعمار من طريق التمسك بالأصول عقيدة ولغة وثقافة • وقد غلب الطابع الانشائي التقليدي ـ بالضرورة ـ على لغة النصوص التمثيلية بالنظر الى طبيعة المنابع الثقافية التي يستقي منها المؤلفون موضوعاتهم وأسلوب صياغتها ، فجلهم ممن تلقوا العلم في جامع الزيتونة بتونس بعد ان أكملوا تعلم مبادىء القراءة والكتابة في زوايا تحفيظ القرآن بالجزائر • وقد تخرج جيل الأربعينات والخمسينات من هؤلاء الكتاب في المدارس العربية الحرة التي انتشرت بعد انشاء جمعية العلماء وتزايدت بعد الحرب العالمية الثانية • والكثرة الغالبة من كتاب التمثيليات من المعلمين ومديري هذه المدارس ، وقد توخوا بها توجيه التلاميذ وارشادهم الى القيم الانسانية في الاسلام لانشاء جيل جزائري صالح •

وهكذا نشأ المسرح العربي الجزائري ذي النزعة الاسلامية في أحضان دور التعليم ، وانتظمت حفلاته في ساحها ، لتحقيق هدفين تربويين هما تقويم ألسنة الناشئة وتدريبها على القواعد اللغوية والتعبيرية الصحيحة ، وغرس المبادىء الدينية القويمة

التي دعت الى احيائها جمعية العلماء في نفوس التلاميذ ، والحث على محاربة البدع والأباطيل التي أشاعها ( أصحاب الطرق ) والمشعوذون في ذلك الزمان . ومن ثم يمكن القول ان هذا المسرح كان ( وسيلة ايضاحية ) في المدرسة قبل أن يتطور حتى يغدو ( مدرسة للشعب ) كما كان منذ فجر التاريخ ، فقد اعتمد الأسلوب المباشر القائم على اسداء النصيحة والحكمة في قوالب جاهزة ، ولم يملك بداهة أية تقنيات فنية تؤهله للارتفاع الى مستوى المسرح بخصائصه المميزة ، اذ كان التلاميذ هم الممثلون ومعلموهم الملقين والمخرجين العفويين ، فلا علم بفن المسرح ولا خبرة ، فقد بدأوا من فراغ ، ولا ينفي ذلك فضل محاولاتهم ذات القصد النبيل المتمثل في الوفاء للتقاليد الدينية والوطنية واحياء التراث .

ولا يكاد يقع تحت حصر عدد المسرحيات الدينية التي عرضت في الحفلات المدرسية تلبية لاحتياجات المواسم المختلفة مثل عيد المولد النبوي أو انتهاء العام الدراسي وغيرهما من المناسبات . وأبرز كتاب المسرحيات الاجتماعية والتاريخية القاص الشهيد أحمد رضا حوحو ، وان كان انتاجه أقرب الى التمثيليات التي قد تصلح للاذاعة منه الى المسرحيات بمعنى الكلمة ، وقد ألف سبع عشرة تمثيلية منها ( بائعة الورد ) و ( أدباء المظهر ) و ( الأستاذ ) و ( البخلاء الثلاثة ) و ( صنيعة البرامكة ) و ( عنبسة ) . وأهم المسرحيات أو التمثيليات الأخرى – كما ورد في كتاب ( فنون النثر الأدبي في الجزائر ) – ( مضار الخمر والحشيش ) لمحمد العابد الجلالي ، و ( طارق بن زياد ) لمحمد صالح بن عتيق ، و ( الآمر بأحكام الله ) و ( امرأة الأب ) لأحمد بن دياب ، ( الصراع بين الحق والباطل ) لعلي مرحوم ، و ( زينب الفتاة ) لعبد الرحمن ابن العقون ، و ( المولد النبوي ) لعبد الرحمن الجيلالي ، و ( الناشئة المهاجرة ) ، و ( الخنساء ) لمحمد الصالح رمضان ،

و ( حنبعل ) لأحمد توفيق المدني ، و ( يوغورطة ) لعبد الرحمن ماضوي ، و ( الغذاء الملعون ) لجلول البدوى • وتغطى هذه التمثيليات وغيرها فترة تبلغ نحو ربع قرن ، وتمتد من الثلاثينات حتى أوائل الستينات ؛ ويستوحى كثير منها — كما يتبين من عناوينها — من التاريخ العربى ، انطلاقا من الهدف الذى ترمى اليه ، وهو احياء البطولات والأمجاد الوطنية والقومية والدفاع عن الثقافة العربية التى كانت تحاصرها السلطات الاستعمارية الفرنسية لتدمير الشخصية الجزائرية كما بينا • ومن هذه التمثيليات ما يتناول تاريخ الجزائر قبل الفتح الاسلامى من خلال بعض الرموز من قادة البربر الذى قاوموا الغزو الرومانى مثل ( يوغورطة ) ، للدلالة على عراقة الشعب الجزائرى وكفاحه عبر العصور •

ولئن كان المسرح العربى التعليمى والاجتماعى لم يتطور طوال تلك الحقبة بأدواته المختلفة ولا سيما ( الديكور ) ، فان المسرح الشعبى قد حقق خطوة على هذا الطريق فى عام ١٩٦١ على يد علم من أعلامه وهو ولد عبد الرحمن كاكى مؤلف ومخرج مسرحية ( القراب والصالحين ) وغيرها من المسرحيات • ويرى الباحث الأخضر بركة أن هذه المسرحية تمثل مولد المسرح الشعبى الجزائرى بمفهومه الحديث ، فهى تجربة فريدة فى البحث عن صيغة لاقتباس الأغنية الحركية الريفية بمواضيعها وأشكالها التعبيرية ، وتقديمها فوق خشبة مسرحية عصرية • وهى تتميز بالوفاء لروح التعبير الشفوى الشعبى ، وتتلاءم وسائل اتصالها مع السياق الثقافى الجزائرى • وقد استغرقت هذه التجربة عشر سنوات ( من ١٩٥١ الى ١٩٦١ ) استطاع بعدها ولد عبد الرحمن كاكى أن يبتدع لغة مسرحية تستمد قوتها وأصالتها من التراث الوطنى ، حيث خلعت عنصر الحداثة والمعاصرة على وسائل الاتصال التقليدية التى كانت مهددة حينذاك بالاختفاء والانقراض ، تحت وطأة عملية تحديث

المجتمع الجزائرى · وكانت اللغة التى يؤثر هذا الفنان المبدع استخدامها وتوظيفها فنيا هى لغة الشـــعر الملحون ( الشعبى ) وقصائد المديح ·

* * *

تلك نظرة بانورامية على خريطة المسرح العربى فى الجزائر خلال الفترة الممتدة من ١٩٢٢ حتى ١٩٦١ ، قصدنا منها ان نزيح الغبار عن صفحات لامعة من تاريخ هذا المسرح لا يعرفها كثير من أبناء مشرقنا العربى الذى وفدت منه أول فرقة مسرحية الى بلد الأوراس بسبب الظروف الاستعمارية والفرقة السياسية التى آن لنا أن نعمل جاهدين فى سبيل اسدال الستار عليها ، وأن نتخذ من المسرح وغيره من الفنون سلاحا لقهر التخلف والتمزق ، وفاتحة لغد أكثر أمنا وحرية وعدلا وجمالا ·

## من دمشق الى وهران ٠٠ عود على بدء

أعود اليـك يا وهران من الغياب والحضـور ٠٠ غيابي عن مجاليك المونسة المطلولة بالندى ، وأهليك الذين يكافحون لاحياء لغة محمد وأبي ذر وعلي في معركة الشعريب ، رافعين شعار الجهاد الأكبر بعد أن قدم الشعب في الجهاد الأصغر مليونا ونصفا من الشهداء فدية للحرية ، مستخلصا لنا وطنا عربيا اسلاميا من براثن أبشع صنوف الاستعمار : استعمار استيطاني شرس استمر مائة وثلاثين عاما ٠

عائدا اليك يا مدينتي الظل من الحضور في دمشق ٠٠ من مؤتمر الكتاب والأدباء العرب الثاني عشر ومهرجان الشعر الرابع عشر في المدينة القديمة الفيحاء ٠٠ قلعتنا العربية الصامدة على خط المواجهة الأول مع العدو ٠ عائدا الى حيث استقرت بي النوى ٠٠ الى منفاي ٠٠ مهجري ٠٠ بل وطني الثاني ـ وكل بلاد العروبة موطني ـ حتى أعود الى بـلدي ويعود بـلدي الحبيب الى ٠ وآه يا مصرنا العربية ٠٠ يا مهد العراقة والابداع ٠٠ يا وطن النجوم ٠

أقول للصديق الأديب عضو الوفد الكويتي الذي ألتقي به أول مرة في مؤتمرنا نحن الكتاب العرب وقد تداعت التأملات :

ـ يطول اشتياقي الى وجه مصر ··· ويعذبني الحنين ·

ـ لست وحدك يا أخي ·· فكلنا عشاق ، نحن الى أمنا الحانية العظيمة · بهية وشامخة انت يا مصر رغم الجرح والحزن المطل من وراء العيون ·· ورائعة أنت يا دمشق تحت المطر ·· غدا ـ ولا بد أن يأتي الغد ـ تعودين يا عاصمة العروبة وتنتصرين يا دمشق ·

لكم هي غزيرة كالأمطار الدمشقية تلك الذكريات التي إحتقبتها معي من تلك الأيام والليالي أثناء انعقاد المؤتمر ·· الوجوه القديمة السمحة بعد فراق الأعوام الطوال ·· والوجوه التي نصافحها أول مرة وان لم تغب عن أسماعنا ووجداننا نبضات قلوبها عبر روائعهم في الشعر والرواية والقصة والمسرحية منذ الخمسينات حتى السبعينات لم ينقطعوا أبدا عن الانتاج بعضهم احتفظ بنغمته الأليفة المعروفة ، وكثير منهم تطور وقدم الجديد · فالعمر الأدبي لا يقاس بالزمان التقويمي أو البيولوجي · ولكن القديم والجديد يلتقيان جميعا في الجاحظ حينما سئل ماذا تتمنى ، فقال : أن أموت وعلى صدري كتاب ·

هيه يا فرسان الكلمة القوية المناضلة ·· تهن الأعضاء ولا يهرم القلب ويظل القلم يخفق حتى آخر نفس ··· قديما غنيتكم في صباي :

مرحى يا أحبابي

يا عشاق الانسان

الرحلة كانت قبل الفجر
والقمر الساري لم يسفر
عن وجـه صديق
وحملتم مأســاة الليـل
انى اعـــلم
ألمح في الوجه نثـار غبـار
وعلى المنكب من أطبـــاق الغيم
بعض رمـــاد
دميت الأقدام تصعد فوق السفح
والسفح تجللــه الأشـــواك
وبلوتم ما صنع الويل
انى أعرفها
اشباحا خائنة الأعين
كم غرست شوك الحقد الأسود
فى القاع ٠٠ على درج السفح ٠٠
حتى القمـــة

كنا نواكب انتصارات الشعوب فى الخمسينات ٠٠٠ نذكى نيران التحرير بأناشيدنا وقصائدنا ٠٠ نستلهم كفاح أمتنا أروع كتاباتنا ٠٠٠ نسمع ـ كأنما تملأ الآفاق سيمفونية انتصار ـ فرقعة سقف الاستعمار وهو يتهاوى فتسقط بعده الأمطار لتنبت الخضرة

بين الأطلال وتدور السواقي . كان النصر يعمد بالدم الزكي .. حتى الأطفـال والبنات والصبايا دافعوا عن حقهم في الحياة .. وافتدت مدينة بلادا وشعوبا .. كانت بورسعيد في أيامها العشرة المجيدة .. وتساقطت قلاع العدوان .. كان صوتكم واحدا أيها الشعراء والكتاب العرب لأن أمتكم واحدة وعدوكم واحد . ولأن عالمنا واحد فقد وقف أصحاب الكلمة الشرفاء في مختلف الأوطان معنا . ما كان أروع تلاحم الثوار وأجمل أيام النصر .

فلماذا تختنق الأصوات اليوم ؟ أهي ردة بعض ضعاف النفوس أم هو الملال من طول السرى في ظلمات الستينات الأخيرة والسبعنات؟ جولات خاسرة ولكن الصراع لم يحسم بعد ، والنصر معقود لمن يملك الارادة الأقوى . فلم الكآبة ؟ : شدوا أيديكم .. ها قد اجتمع الشمل تحت عقود دمشق .. وقريبا تشرق الشمس :

العود حميد يا عشاق الانسان
يا صناع الكلمة
غنوا الشمس على أبيات الأحرار
غنوها في عين مدينتنا
وعيون الأحباب الشرفاء
في عالمنا الآتي الأكبر
غنوا .. لن يغني سحر الكلمة
غنوا .. فالليلة موعد احبابي .

ذكريات عميقة وشاجية كأطلال القنيطرة مدينتنا السورية الجميلة التي نفذ فيها الصهيونيون العنصريون حكم الاعدام بعد

وقف الحرب» ضحية بريئة فى الصراع المصيرى الرهيب» ها هو طيف وجهها النبيل الحزين •• جسدها الذى كان •• يتحدياتكم حتى تعود الجولان •• وتعود فلسطين •• وطريق العودة ـ تعلمون أيها الأصدقاء المناضلون ـ يمر بمصر العربية •• وها هى ذى تنظر اليكم فاصمدوا وناصروا شعبها حتى يعتدل الميزان •

فى الطريق الى المدينة الشهيرة على مسيرة ٦٥ كيلو مترا من دمشق ران علينا الصمت لم يقطعه بين آن وآخر الا صوت مرافقنا يرسم لنا بكل ذرة فى دمه مسار المعركة وتطورها •• بطولة الطيارين العرب السوريين •• كيف كانت القنيطرة عاصمة الجولان وكيف أصبحت !! وكأن أصابعها تشير الينا من تحت الرماد والشرفات التى تهاوت فى عز الظهيرة • كتـــاب مغلق أيها الأدباء فمتى ينفتح ؟ والفارس المصلوب •• أما ان للراكب أن يترجل ؟ ••• لم تكن غير خمسة كيلو مترات فقط تفصلنا عن الجولان •• نراها ويحرم علينا لمسها ويسكنها الأعداء !! خنجر بين الضلوع نتبادل ـ من خلف المنظار المكبر ـ النظر الى الجندى الاسرائيلى أمام حظيرته •• يرمقنا •• فجأة يدير ظهره ويحتجب خلف باب حظيرته •• تراه لا يقوى على المواجهة كدأبه فلا يحاربنا الا من وراء جدار •• لكنا قد جئنا لا نحمل الا قلوبا وأوراقا وبعض مداد •• فالمعركة لم تستأنف بعد •• أم ترى أزعجه أن يرى بيننا وفودا من كتاب دول أوروبا الشرقية وشعــرائها يعبرون لنا عن تضامنهم معنـــا فى السراء والضراء ؟؟ أعلام ثلاث تتابع والأسفى : سوريا ، الأمم المتحدة ، اسرائيل •• تخترق العيون •

ولم تكن تفصلنا عن فلسطين ـ أرضنا المحتلة ـ غير عشرين كيلو مترا •• لم تزد المسافة عن عشرين كيلو مترا •• ومازالت الأرض عطشى رغم مرور القوافل المتتابعة من الشهداء •• وغدا تنطوى المسافات ، ولابد من صبحنا وان طال السفر •

لكن القلم يتوقف .. فأفزع .. إحاوره فينتابني هاجس المرض اللعين .. ليست تهويمات شاعر ، فالذى غاص فى احشاء تاريخ الصراع يعلم ان فلسطين ضاعت يوم قبلنا الهدنة وتوقفت الحرب .. والذى اكتوى بالنفى مثلى وكل الذين استيقظوا يعلمون أن بداية السقوط كانت محاورة ثنائية . فاجمعوا شملكم بعد فرز مرير . ذلك منطق العصر فاذا شـــئتم التراث فان محمدا النبى والقائد الأعظم كان يأمر صحابته بالقيام لمتابعة الغزو كلما عادوا من غزوة فاستراحوا واستمرأ بعضهم الراحة وغفل عن عدوه الكامن خلف الأبواب . ويا ويل من يكثرون عند المغنم ويقــلون عند المغـــرم ..

حين التقينا أيها الأحباء أخذت بهذا الفيض الشعورى النبيل .. كان اللقاء قصيرا وعابرا كالحلم ، ولكنه كان عميقا وراسخا فى قلبى .. لم يكن ترحيبكم بى وانما بمصر العربية .. ما هذا الحب الكبير ـ الذى تطويه حناياكم ولا تقدرون على كتمانه ـ لأمنا جميعا ؟ تستعذبون اسمها فتهتفون به مرددين ، لأنكم تعلمون أنها تصغى اليكم .. تختبر ودكم فى زمن المحنة أيها الرفقاء العرب الأصفياء . أمتنا أذن بخير .. لم أسمع تصفيقا حينما انشدت شعرى بينكم وانما سمعت خفقة قلب واحد يدق فى آلاف الصدور كما قلت لكم . مصرنا هي الشعر ..

قلب دمشق العربى الخفاق تتبلور قطرات المطر معلنة عن سماحته وأصالته فى أيام المجد وليلات القهر .. تغتسل مدينتنا كأنما لتتطهر قبل صـــلاة الثأر . وتتلامح شعاعات الشمس من بعيـــد ..

يشجينى الصوت الجماعى لمؤذنى الجامع الكبير .. مسجد بنى أمية .. لا نأمة فردية .. فالصـــلاة جماعة .. يبدأون معا

ويسترسلون وكذلك يختتمون ... انهم يرسمون للقادة ـ هؤلاء الحفاظ البسطاء أبناء السلف الصالح .. الطريق الوحيد للنصر . وكذلك يفعل منا ـ نحن الكتاب العرب ـ الصادقون فيهتفون معا : لن تتحول كلمتنا الى فعل .. لن يتحول الفكر الى بندقية .. طالما تولت الأمر فينا بعض الدول التى لا تحترم الفكر والأدب الا بالقدر الذى يخدم السلطة .. ان مؤتمراتنا تعبىء المثقفين ولكن مقرراتها وتوصياتها تظل رشح مداد ما لم تعدل تلك الدول عن خطتها . فلتكن الكلمة الأخيرة لاجماع الرأى العام المتمثل فى المفكرين والأدباء لا للسلطة .

وجوه وأشياء عزيزة لن أنساها أبدا .. طفلة وزهرتان من القرنفل .. كل شاعر استقبلته أجمل مشاعر الانسان وهدايا الكون : البراءة والنضارة وأجمل الزهور لكن وأسفاه خملت فى حضنى القرنفلتين .. كنت أود أن أحملهما فى عودتى لتراهما ابنتى الصغرى فى وهران ، ولأحتفظ بهما كالعاشقين الصغار . بحثت عنهما عند الرحيل دون جدوى .. لا بد أن عاملة الفندق قد ألقت بهما فى سلة المهملات .. ترى لأنها كانت غارقة فى بحر الهموم بعد أن حرمت رؤية طفلتيها كما حدثتنى وسألتنى مشورة رجل القانون ؟ أم للكثرة ما تعودت ذلك ؟ فماذا أصنع ـ هكذا ظنت السيدة الحزينة ـ بقرنفلتين ذابلتين ؟

قال لى صديق التقيت به بعد عودتى من دمشق كأنما أراد أن ينكأ الجرح أو يعبر عن مواساته : « كنت قريبا من القاهرة .. تحوم حول الحمى وتوشك أن تقع فيه » . قلت : « ليتنى استطعت أن اقـــع .. وآه يا بلدى .. أكاد أشرق بالدمع ولكنى أتجلد وأجالد ، والنصر لنا .

وحين كنت عائــدا أقرأنى واسينى الأعرج كاتب القصة الجزائرى الموفد الى جامعة دمشق لتقديم أطروحة يحصل بها على

شهادة الماجستير فى الأدب العربى ، أقرانى ورقة دمشقية :

« كانوا أربعــة

اربعة من الكتاب المصريين التقوا على طاولة واحدة ، تجمعهم صداقة قديمة ، وعذابات فى سجون القاهرة وغيرها • وكنت أنا وصديقتى نشرب قهوة معهم ، وندردش قليلا • أربعة كانوا ليس الا ، نفاهم وطنهم الذى أنجبهم : الدكتور حسن فتح الباب ، الشاعر عبد الرحمن الخميسى ، واثنين آخرين ضيعت اسميهما • كانوا مطاردين حتى لحظة شرب القهوة • بعد الانتهاء من الرشف والدردشة نهضوا جميعا فجأة وقالوا ، بل وعدونا شرفا أن اللقاء سيكون فى مصر • رأيت بعض الحزن يعلو وجوههم • حاولوا أن يتواعدوا لكن الوقت كان قصيرا ، فتوجه الأول الى وهران ، والثانى الى موسكو، والثالث الى بيروت ، والرابع الى طرابلس ••

كانوا أبناء وطن واحد ، كالقطة حين تحزن تأكل صغارها »•

لا تأس أيها الصديق•• انه النظام المرتد يريد أن « يصفينا نفسيا » بعد أن عجز عن تصفيتنا جسديا •• وكلما اشتد عليه الحصار أدركه السعار المجنون لأنه أجوف من الداخل ، وهو يدرك كم نحن أقوياء بحقنا وشرفنا وصمودنا • لأننا أبناء شــعبنا •• وأبناء أمتنــا العربيــة التى لن تقهر •• وسوف نعود الى مصر وتعود الينا •• غير بعيد :

**ولى وطن آليت الا أبيعه وألا أرى غيرى له الدهر مالكا**

وفى البدء كانت الكلمة •

***

## عائد الى المحروسة من الامارات

مشدود بين الغدو والرواح .. صوت الخليج على الشارقة ودبى يردد هتاف ( ابن ماجد ) حاديا ركب البحارة المغامرين فى آفاق المجهول ، وأصداء ( المتوسط ) من ( الاسكندرية ) تغمر سمعى ووجدانى .. يتناءى الزمان وتخصب الذاكرة جماليات المكان والانسان .

مشدود بين النقائض والتوائم .. بين الثنائيات والمنمنمات العربية والمشربيات : أعود الى الوطن الأم .. الوطن الحلم .. أرض « المحروسة » مصر كما كان يسميها مؤرخها الفذ الجبرتى .. محروسة ببركة أهل البيت والأولياء الصالحين .. رهبان الليل وفرسان النهار ، وترانيم أرواح الشهداء عبر العصور .. يبلى رفاتهم ولكن عبيرهم يبقى متناثرا بين ابواب ( النصر ) و ( الفتوح ) و ( المتولى ) وبين ( السيدة زينب أم هاشم ) صاحبة القنديل الذى أوحى الى شيخنا العظيم يحيى حقى باحدى روائعه الخالدة ، ويفوح من الاسكندرية وبور سعيد ودمياط على طول مواقع المقاومة .. العبير الذى يضوع ولا يضيع .

في الأفق الأعلى يتآخى ويتوحد المناضلون والمتصوفون . ولكنهم مسكونون بطلب الموت حتى توهب لأحبابهم وحفدتهم الحياة ولا تسقط راية البطولات .. ويظل النيل يجرى وان ظمأ أهله الى حين .. ( السيد البدوى ) ولى ( طنطا ) وامام المتصوفة يمتشق حسامه ، وينخرط في كتيبة المحاربين بالحق في مواجهة افك الصليبيين ، فتقطع ذراعه لترتفع هامته نبراسا للأجيال الصاعدة ، وتصبح الصومعة قلعة للنضال .

حرافيش القاهرة المعزية يخرجون من كهوفهم كالطوفان الهادر صوب الأزهر يردون جحافل الفرنسيس ـ المغيرة كالجراد بقيادة ابن كورسيكا الطاغية ـ عن مدينتهم .. عن جميلتهم .. عن تراب المحروسة الطيبة .. يصدون أعتى المدافع بصدورهم العارية ، مستصرخين الأحياء والأموات بالنداء الخالد ( الله أكبر ) . ولا تمضى ثلاث سنين على ثورتى القاهرة الأولى والثانية حتى تنحدر فلول الغزاة تجر ذيول خيباتها مولية الى بحر الظلمات .. بحر الروم ، وتبقى أرض الحضارات مشعة على العالم أضواء خضراء .

.. تتفجر في أعماقي جدلية الحياة والموت .. الواقع والأسطورة .. تواريخ الانتصارات والانكسارات ... لهيب المنشدين وأناشيد اللهب .. النار والزيتون وأطفال الحجارة .. ثم أرتد الى الأيام والليلات على إلخليج لأحيى بالذاكرة أوقاتا مثل استراحة المحارب التقطت فيها بعض أنفاسي ، واستردت مساحة صغيرة ، ولكنها مضيئة متوشحة برداء من التفاؤل في الزمان المقيت والتوقيت العصيب القاتل وكوابيس مصير الهنود الحمر !! كوة ضئيلة برقت لى ـ حين جئت الامارات في شتاء عام ١٩٩٢ زائرا عابرا ثم طالت الاقامة على عكس ما كنت أخطط ـ كوة في نهاية النفق الغارق في دوامة الظلمة .

**عطر الأحباب :**

ألتقى ويا للمفاجأة بالفتى الشاعر الناحل الذي كان يدمن صحبتي حين وفدت على الشارقة أول مرة سنة ١٩٨١ ، وكان عاشقا للشعر والشعراء شاديا في البدايات أراه الآن مثيرا للجدال حول محاولاته الابداعية ومسئولا عن مجلة شعر ... التنمية العمرانية والسكانية على قدم وساق .. وللثقافة نصيب موفور من الثروات كي يصبح النفط نعمة لا نقمة . فليس هنالك سبيل آخر ـ بعد الايمان بالتضامن العربي ـ غير الثقافة لجمع الشمل المفتت ولم شتات الاخوة الأعداء بعد أن زادت من فرقتهم حرب الخليج .

كلما حملتني خطاي هنا وهناك بين أبي ظبي والفجيرة رددت : هنا في هذه الجزيرة العربية كانت لنا حضارة وكان انسان مبدع ... يستخرج اللؤلؤ من المحار ليزين به الجيد العربي .. ويصحح مسيرة البشرية كلما اعوجت ... وهذا التمرد الذي يبرق في عيون الشباب اليوم ، ارهاصة باستعادة الحرية والعدل والكرامة . وتلك المطبوعات الثقافية والأدبية التي يتوالى زخمها برهان ساطع على ارادة التغيير والإصرار على هزيمة اليأس والاحباط ، وكأن المبدعين ـ شبابا وكهولا ـ في الامارات العربية المتحدة ـ اذ تنثال أعمالهم الفنية والنقدية ـ يريدون أن يعوضوا في أسرع وقت كل ما فاتهم ، ويسهموا في اثراء الثقافة العربية الجديدة التي تولد في الآونة الحاضرة ـ رغم كل المعوقات ـ من رحم الايمان بحتمية انتصار الحياة والتقدم للانسان الصاعد على جناحي الأمل والعلم والتوق للخلود .

يطفو على خاطرى الآن بيت شاعرنا القديم :

**الشوق ولما يمض بى غير ساعة**
**فكيف اذا خب المطى بنا شهرا ؟**

فلقد اشتقت الى الساعة الموعودة التى كنت أرقبها صباحا لأطالع صحف الامارات الثلاث : البيان فى ( الملف السياسى الأسبوعى ) بحكم حرفة القانون الدولى التى أدركتنى، والدراسات المنشورة على صفحات صحيفتى الأثيرة ( البيان ) فى اشراقة صفحتها الأدبية التى تمزج بين التراث والحداثة ، ومتعة الصبوح اليومى ذى النغمة الوامضة الآسرة الساخرة فى المقال اليومى ( مع الناس ) للأديب عبد الحميد أحمد .. والمأثورات الحية لصحيفتى الاتحاد والخليج وشهرية ( المنتدى ) و ( أوراق ) و ( شروق ) . لا أفرق بين أحد منها طالما شعرت بصدق الكاتب وجديته بل فدائية عدد غير قليل من الأدباء حين يصدعون بكلمة الحق والجسارة ملتزمين بالدفاع عن مصالح الناس ، والتعبير الحر عن هموم الأمة وآمال الناشئة فى مولد عالم لا يستغل فيه الانسان ولا يستعبد عالم أوحد .

**عود على بدء :**

ها أنذا أعود من الامارات الى قاهرتى التى عذبتنا وعذبناها بالحب ، وهى تدعونا الى الصبر والمقاومة حتى تشرق الشمس ثانية كما يقول همنجواى . وها أنا أتطلع الى نجومها منشدا والدموع تترقرق فى عينى أبياتا من قصيدة لى :

**يا نجوم القاهرة**
**لا تنامى**

لا تكوني ومضات من دموع
فى عيون القادمين
لا ولا ذوب شموع
فى ضمير الراحلين
لا تغيبى
نحن مازلنا نعاني ونغني
ندفن الموتى ونشدو للحياة
لك ٠٠ للوردة والنهر القديم
لا تنامى ٠٠ لا تغيبى ٠٠ يا نجومى

الحقيقة ــ بعد العودة من أرض ابن ماجد الخالد ــ تتحول الى حلم ، والحلم يصبح رؤيا ورمزا ٠ وتتناءى المجالى عن ناظرى وان بقيت فى خاطرى :

وكنت اذا أرسلت طرفك رائدا
لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر
عليه ولا عن بعضه أنت صابر

ترى أتكون لنا عودة الى الشارقة مرة أخرى فيعود الحلم حقيقة ، والرمز وجوها حبيبة وخليجا ساطعا وابن ماجد سيدا من جديد على البحار يغالب مصارع العلم ويمحق أسطورة التتار ، متوحدا بشمس الجزيرة ، مغنيا لنجوم القاهرة ، مستعيدا للحرم المقدس فى الأقصى ٠٠ مادا ذراعى النسر العربى المحلق ليحتضن

سماء المشرق والمغرب .. ترى هل يعود ؟ وهل يأذن لنا أن نعود لنحتفل معا بأعياد النصر وذكرى الشهداء وتجليات الغد الموعود ، يهتف بنا مع ناظم حكمت : ( اذا لم تحترق أنت ، اذا لم أحترق أنا ، اذا لم نحترق نحن .. فمن ذا الذى يضىء شمعة فى الظلام ؟ ) .

الحقيقة تتحول الآن الى حلم ، والحلم يغدو رمزا مضيئا ، وتبقى امارات ابن ماجد القديم منارا ثقافيا فى الأفق ، ويحيى الشعب العربى فى كل بقعة من أرض الحضارات التى لن تموت .. لن تموت ولو كره أعداء الحرية والعدل .

## لافتة على الطريق في أرض اخناتون

على الشاطىء الغربى لترعة الابراهيمية التى تقسم مدينة أبو قرقاص احدى أهم مدن محافظة المنيا قسمين ، كانت السيارة تنطلق بنا متجاوزة قرية أبى وأنا ذاهل عما حولى .. فرت دمعة من عينى خلسة ، لمحها صديقى « نبيل » الذى كان يجلس الى جانبى .. أدركته الحيرة والشفقة سألنى : ماذا بك !!؟ قلت : هذه « منسافيس » التى طالما حننت اليها على مرمى بصرى ولكنى لا أستطيع اليها سبيلا . قال : لنوقف السيارة وتهبط أنت منها كما فعلت أنا وترى من تحب ، وسوف ننتظرك . لذت بالصمت . لقد كان حالى مثل حال الشريف الرضى فى أبياته المأثورة :

قال لى صاحبى غداة التقينـــا
تتشـــاكى حر القلوب الظمـــاء :

كنت حدثتنى بانك فى الوجد عقيدى
وان داءك دائـــــــى

ما تـرى النفـــر والتحمـــل للبين
فمــــاذا انتظارنـــا بالبــــكاء ؟!
لم يقلهـــــا حتى انثنيت لمـــا بى
أتلقى دمعـــى بفضــــــل ردائى ..

حثنى على البوح وأن أفضى بين يديه بهمومى ، فكشفت له سرى وأجبت عن تساؤله : كيف لى بزيارة القرية التى تنتمى اليها كل جارحة من جوارحى وكل قطرة دم فى شراييني ، ولست أعرف أهلا لى بها حتى يدلنى أحدهم على دروبها ، وقد رحل أبى منذ ستين عاما الى دار البقاء ؟ فهل بقى من أقربائه فى القرية من لا يزال حيا بعد كل هذه السنين ؟

فى قطار العودة من المنيا الى القاهرة ، وعلى صوت العجلات سمعت صوت روحى وأصداء أخرى بعيدة تنتظم شعرا من ذوب أحشائى فى مناجاة ذاتية وحوار مع البلدة القريبة البعيدة ، وترابها العنبرى الذى لم يقدر لى بعد أن أمشى عليه أو أتنسمه . ها هى ذى ( حزمة من الجذور ) فى يدى ، قصيدة القطار الشجية . ما بين الوفاء والعقوق تدفق النغم .. أترى رحلة المعاناة الطويلة مكبلة بالزى العسكرى هى التى جرفتنى وأعجزتنى عن البحث عن الجذور ؟ أم هو التنكر للفقراء من عائلة أبى أعمى بصرى فضــاع من قدمى الطريق كما يقول كامل الشناوى ؟ لماذا لم أتشبث بتراب الآباء مثلما تشبث بطل رواية ( الجذور ) باسمه الافريقى ، وظل يصرخ به برغم السياط التى تجلده كى يتخلى عن جلده ، ولا ينطق الا بالاسم الأجنبى الذى سموه به ؟ لماذا لم أكن شجاعا مثله أنا العربى الافريقى ؟ لماذا خنت عهد الجذور ؟ وتفجر القصيد :

( نذرت ما أوفيت/ ان الوفاء شيمة الموتى/ تميمة الأحياء / حى أنا أم ميت ؟ الحارس السجين صاح بى فما استجبت / والشاعر الضليل علنى ارتويت / وملنى هزارى الحزين فاحترقت ) .

وتراءى لى النخيل من سماء قريتى التى تجنبتها منذ الطفولة حتى الكهولة ، يغبطنى لأننى طليق الجناحين أسافر حيثما شئت فى المكان والزمان ، أما هو فأسير التراب :

( حدثنى النخيل عن وقفته / مرتقا بين الرياح الأربعة / مطوقا تحت التراب لا مدى ولا فلك / يرانى الملك / مطوفا على مرافىء الرحيل / حرا بلا ضفاف / ولا تراب لا جذور ) .

## حرية الأسير :

هكذا شكا الى النخيل محنة جذوره التى تضرب فى أعماق التراب وتقيده فلا يستطيع أن يطير مثلى من بلد الى بلد حرا طليقا كالعصفور . فشكوت اليه حريتى وأمنيتى أن يكون لى مثله جذور بعد أن عدمت موطنى القديم ، ورجعت من طوافى بالآفاق حائرا محزونا ، ضائعا مهزوما كأننى الملك الضليل ، امرؤ القيس لم يجن من رحلته غير الاياب :

**وقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب !!**

(حدثته عن قيلة الرحيم / وعن جناحى العقيم / فمن ترى يبدلنا / ضل طريقى للتراب / أضنتنى القباب / الا غيابات الغيوم / ترمقنى بجفنها العليل / مجرة النجوم / يقتات بى البريق والعباب / على مرافىء الرحيل / مجاهل النسيان والهوان / يأسى منى حلمى أهلة انطفاء / أحلم اشتهاء / لابرء لا داء ولا عليل / الا صدى الغليل / لى الوطن وجدانها النخيل ) .

أيتها الحرية ألست غير وهم ضيعني اذ حرمتني من نعمة الانتماء الى الجذور ، وغدوت أسيرك ، أسير خوفي من ارتداء ثياب جدودي ، أسير مطامحي التي عزلتني ومزقت نسيجي .. غنيت للمطلق رغم احتوائي أحزان الفقراء والمقهورين في وطني وفي العالم ، لكنني لم أرتض العيش على تراب قريتي القريبة البعيدة ، حتى زيارتها ضننت بها . هكذا كان خطابي اليها :

عيونك السود سماء الأقحوان / بللها الليل رذاذا من حنان / يا ابنة عشقي للثرى وللندى / يانشوة الميلاد خيفة الردى / ورجعة الصدى / يا جنة حرمها على أفعوان / جوب البحار لا زمان / يحنو ولا مكان / يحمي اذا ما حوصر البستان / وراود الأحبة الشيطان / فاستدفأوا بسلة البذور / يا من يبيعني / بالموج والفضاء والسفين / حرية الأسير / محارة من الحجار قبضة من طين / وحزمة من البذور »

عود على بدء :

أصداء من جذوري في الصعيد وأطياف من النخيل عادت معي الى النخيل ... لا جذور تحنو ولا نخيل يشكو في مدينة الملايين يسبحون ويتلاطمون في زحامها غرقى لا يعرف بعضهم بعضا لأنهم بلا جذور .. أراني طافيا على صفحة النيل الجنوبي .. لا نيل في القاهرة بعد أن حجبته عن العيون القطط السمان في عصر الانفتاح ... النيل « حابي » هناك حيث تركته خلفي في « المنيا » يهمس بتراتيل اخناتون مسبحا للاله الواحد آتون :

ملك الجنوب والشمال

الحي سيد القطرين

الضحى اله الشرق

يا خالق الاجنة فى النســاء

وصانع النطفة فى اصلاب الرجال

يا من تطعم الجنين فى بطن أمه

فاذا ما خرج الى الارض

فتحت له فمه

كما تهدىء من روعه عندما يبكى

يا الهى كثيرة هى أعمالك

ولكن ما خفى عن عيون البشر

كان أعظم

أيها الاله الواحد الذى لا نظير له

فى الأرض ، خلقتها برغبتك

فجرت النيل من باطن الأرض / ليهب الحياة للمصريين / أنت سيدهم جميعا / أنت سيد المخلوقات الذى يشرق لهم / أنت آتون قرص الشمس المهيب الطلعة / أنت الذى يهب الحياة للبقاع الغريبة / وقد جعلت لهم نيلا آخر فى السماء لينزل اليهم الماء / لتحيل الجبال الى أرض زراعية : ألا ما أعظم تدبيرك / هذا المطر هبة قدمتها لهم أيها الاله الأبدى / رفعت البلاد بعيدا لتنفذ فيها نورك / أنت الاله الواحد الذى يظهر فى صور عديدة / أيها الرائع المتلألىء / أيها البعيد القريب فى وقت واحد / خالق الملايين من المخلوقات بقوتك / مبدع المدن والحدائق والحقول

والطرق والأنهار / كل عين تراك أمامها لأنك قرص الشمس الذى يشرق على الارض ) •

أتراني عدت الى ميتافيزيقيتى القديمة التى كنت قد برئت منها بعد أن ارتطمت بصخرة الواقع ؟ أتراه عبثا كل ما ألهمتنيه الواقعية الجدلية ؟ فلماذا اذن أتأمل فى ثلاثيــة الحياة والموت والبعث منذ زرت صحراء الأشمونين وتونة الجبل ورأيت موميا، « ايزاد ورا » الصبية الأميرة الجميلة الشهيدة وناجيتها :

**مازال الخصر نحيلا والوجه الاكليل**

**أتراها القمراء العذراء تفتش عنها**

**تحت الشط الحجرى المنسى**

**كى تمنحها قبلات من شفة البردى**

**أو من شفتى ايزيس**

**تنضو عنها كفن الظل العارى ؟**

أهى رؤيا ايزاد ورا أم ذكرى طه حسين تلك التى أثارت الشجون ، وانبعثت من رمادها جمرة الحنين المستبد الى (منسافيس) التى رجعت دون أن أجوس خلال ديارها ، وأزور مقابر أجدادى وبيوت من لايزال على قيد الحياة منهم ؟ هل أغنتنى عنهم أطياف أخناتون وانساب قصيد جديد فى ليلة قاهرية مسهدة العينين :

**( سبعون عاما جبلا / محررا مغللا / مجللا بسحبه مكللا / فوق دمى مشتعلا / طوفت ما طوفت / عرفت ما عرفت / رأيت من رأيت غير أن من / بحثت عنه لم أجده ) !!**

وتداخلت النخلة الفرعونية العربية فى حلم اليقظة بعد أن تبعتني الى القاهرة أو تبعتها بخيالى الى الجنوب الذى فارقته ملوما محسورا .. تداخلت مع مآذن المساجد وقباب الكنائس ورؤوس المسلات ، الكل فى واحد ، والواحد فى الكل ، سيمفونية أعرق بلاد الدنيا .. توقيعات الأذان ودقات الأجراس وصمت المسلات الناطق بلسان أعظم الحضارات ، كلها تتعالى فى الفضاء لتصل الأرض بالسماء .. نخلة تنامت فى قلبى وحملتها على يدى كسورة من مصحف أو أيقونة من كنيسة أو حجر من معبد .. وصار قلبى مصحفا وأيقونة وزهرة لوتس وبردية مثل قلب المتصوف محيى الدين بن عربى :

| | |
|---|---|
| لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى | اذا لم يكم دينى الى دينه دانى |
| وقد صار قلبى قابلا كل صورة | فمرعى لغزلان ودير لرهبـــان |
| وبيت لأوثان وكعبـــة طـائف | والواح توراة ومصحف قرآن |
| أدين بدين الحب أنى توجهت | ركائبه فالحب دينى وايمـــانى |

كل خلية فى دمى .. كل خفقة فى فؤادى تحولت الى أبيات من الشعر ، لم أكتبها وانما كتبت نفسها كما قال يوما عن قصائدى الناقد النافذ البصيرة مصطفى عبد اللطيف السحرتى الذى لم يعد أحد يذكره فى عصر الفوضى وصراع الأهواء ، فكل قوم بما لديهم فرحون ، ومصر أحيانا كما قال شوقى بلد ( كل شىء فيه ينسى بعد حين ) .. عادت بى نخلة الصعيد الى القاهرة أو عدت بها ، صرنا اثنين فى واحد ، نتبادل مواقعنا : هى الروح وأنا الجسد أو أنا الجسد وهى الروح .. جاذبتنى ردائى وعادت بى الى أرض أخناتون .. الى حيث كان ينبغى أن أكون حينا من الزمن ، أتزود فيه من نفحاته ورحيق مدينته ( أخيتاتون ) قبل أن تلقفنى دوامة القـــاهرة .

علمتني النخلة معنى الوفاء ، فهي متشـــبثة بجذورها تأبى الا أن أعود مثلها الى جذورى .. شرايينى ، وأنقض على الزيف لاكتسى بثوب الخلود : ( نمت بقلبى نخلة : تبعثها الى الجنوب / أحملها على يدى / مسلة مسنونة فرعاء / مئذنة شجراء / كنيسة عذراء / منارة زيتونة خضراء / وزيتها من كبدى / خرجت من شرنقتى / أحبو الى محارتى / دفينة فى قريتى التى / ما عرفت شنطا على بخار / وما عرفتها / الا ضوى تذكار / اسم رؤته الدوحة الشماء / عن طائر كان أبى / « أبى الذى مضى / ولم تشيع نعشه حشود » .

## كالعيس فى البيداء يقتلها الظما

حملتنى نخلة الجنوب مرة أخرى الى « الفكرية » حيث زار رفيق الرحلة بعض أهله ، ليروى شيئا من غلته يستعين به على مواصلة الحياة فى العاصمة ذات الألف وجه .. هناك احتضن تراب قريته . أما أنا فكنت على قاب قوسين أو أدنى من قريتى وحيل بينى وبينها :

**كالعيس فى البيداء يقتلها الظمـــا**
**والماء فوق ظهورها محمـــول**

قدر فرعونى بل اغريقى كأننى « سيزيف » كلما صعد حاملا صخرته .. صليبه .. الى قمة الجبل هوى الى القاع ، ثم أمرته الأقدار أن يستأنف الصعود ثم الهبوط .. لعنة أبدية كتبت على الأشقياء من دون العباد . فأين أين المصير !! وظلت اللافتة المغبرة التى تحمل اسم قريتى على شاطىء الابراهيمية قريبا من أرض أخناتون تطفو على سطح مخيلتى ثم تغيب كأنها مثلى سيزيفا :

( أوما « نبيل » أن نفيق / مال بنـــا عن الطريق / فهذه قريته / وقع خطاها لم يزل في مســـمعه / عبيرها فى أضلعه / شادوفها والساقية / مسرى رؤاه ·· أدمعه / أفضى الى صحابه بوجده : / أعرف هذا الوجه من قديم / وذلـــك الجدار حضن القلب : و ( التوتة ) التى علت / كانت رحيق من أحب : وغاب كي يعود حانى اليدين باســـم العينيين / فقد روى الضـــلوع والخدين / بضمة الرفاق والأحباب / نادى الهوى أجاب : وصافح الجميز واللبلاب والنخيل والأعناب / أما أنا فقد وجدت قريتى على الطريق / لافتة مصـــلوبة ســـوداء / بلا أب ولا أخ ·· معين !! ) ·

# وادى الأشمونين •• ورحلة العودة الى الجــذور
# ( للميلاد الثانى انبثقت شــمعة •• للحب الأول )

جرت مياه كثيرة تحت الجسور منذ ذلك اليوم البعيد الذى زرت فيه مدينة المنيا أول مرة اذ مضت عليه بضع سنين ، والغريب انه كأنما لم يمض عليه الا يوم أو بعض يوم اذا حسبنا الزمن بمقياس عاطفة الحب وذكريات البحث عن الجذور •• كم تطلعت الى أن تشرق على شمس نهار أجدنى فيه أزور القرية التى ولد بها أبى وأمضى فيها شطرا من شبابه ، ثم غادرها الى القاهرة حيث التحق بالجامع الأزهر مجاورا به وبحثا عن فرصة عمل أفضل ، ولم يقدر له أن يعود الى قريته « منسافيس » بمحافظة المنيا مرة أخرى • كما لم يقدر لى أنا أيضا أن أراها رغم رحلتى الطويلة فى الحيــاة •

طوفت فى الآفاق ما طوفت وعدت من الغنيمة بالاياب كما قال جدنا امرؤ القيس •• قطع الفيافى على ناقته أو حصانه حتى بلغ أبواب بيزنطة وطرق باب قيصر ، لاجئا اليه طالبا عونه على القبائل

التي قتلت أباه الملك حجر ، ولكنه لم يستجب له ، بل خلع عليه حلة مسمومة كما يقول بعض الرواة انتقاما منه بعد أن بلغه أن ابنته وقعت في غرامه . لقد بدأ الشاعر الضليل رحلته المأساوية مفعما بالأمل ، فقال مخاطبا صاحبه الحقيقي أو المتخيل حين أشرفا على بلاد الروم ، وكان قد كتم عنه غايته :

**بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه**
**وأيقن أنا لاحقان بقيصرا**
**فقلت له : لا تبك عيناك انما**
**نطالب مجدا أو نموت فنعذرا**

ولكنه انتهى من مغامرته وهو يجر أذيال الخيبة ، ولما أدركته المنية في طريق عودته ـ كما قال رواة آخرون ـ حفر له صاحبه أو نفر ممن عثروا عليه وهو يحتضر قبرا على جانب الطريق . وكانت المفاجأة أنه كان يجاور قبرا لاحدى الأميرات ، فأنشد هذا الأمير الشاعر العربي قبل أن يلفظ آخر أنفاسه :

**أجارتنا انا غريبان ها هنا**
**وكل غريب للغريب نسيب**

تداعت هذه الخواطر في وجداني لحرماني تحقيق أمنية طالما راودتني وهي رؤية موطن الأجداد . وطالما حلمت أنني أسير فيه على الدرب الذي قطعه أبي في خروجه من قريته . ولكن الرياح جرت بما لم تشته السفن وصحت مقولة الشاعر القديم : ( وتقدرون وتضحك الأقدار !! ) . فقد مضى قطار العمر وهو يقف عند المحطات المرسومة واحدة بعد أخرى دون أن يقف مرة واحدة بالمحطة المشتهاة . وكم انكسر القلب وأنا أجدني غير بعيد منها ولكنني لا أنزل بها ، وكأنها السراب أو العنقاء المستحيلة :

إنـــي رأيت المستحيل ثلاثة :
الغول والعنقاء والخل الوفى

حتى طائر الفينيق المحترق ينبعث من رماده حيا ويطلق جناحيه فى الفضاء صادحا مغردا : ها هى ذي قرية الأجداد تقع في قلب وطنك ، ولكنك لا تملك فسحة من الوقت لارتيادها لأنك تمضى حياتك عدوا لا تكاد تلتقط أنفاسك ، لا بحثا عن مجهول وانما لتجد موضعا لقدمك بين طوفان الأقدار اللاهثة :

ضل بك السفين فى فضائك الغريق
وكان ملاحوه يصرخون : لا انتظار
يموت من يقف

في وادى الأشمونين

تتعاقب الأيام والأعوام ، شمس تطلع من بعد شمس ، وقمر يغرب من بعد قمر ، وتتباعد القرية مهوى الفؤاد ، وتبدأ برودة الشيخوخة تنخر في العظم · وفجأة أراني في ( المنيا ) مع الصديقين الكاتب الصحفى المفكر الوطني الأستاذ نبيل زكي والأستاذ الشاعر الشعبي سمير عبد الباقي ، في طريقنا الى المحافظة للاشتراك معا في ندوة ثقافية نظمتها مع جامعة المنيا · تأهبنا للعودة الى القاهرة في اليوم التالى بعد أن نكون قد زرنا منطقة الأشمونين الأثرية ·

في الأشمونين شعرت مع رفيقى الرحلة أننا نولد من جديد في عالم ساحر عجيب ·· عالم الروح والابداع الانسانى ·· صحراء ليست ككل الصحراوات في هذا العالم ·· كون غامض ·· كل حجر من تمثال او حائط مقبرة فرعونية ينطق لغة لا نعرفها ··

تيجان زهر ( اللوتس ) على الأعمدة .. هنا كانت أعظم حضارة فى تاريخ البشرية . هنا حقيقة وان كانت تتجلى كأسطورة خيالية : غصن من ( لوتس ) ممشوق القد / وهج بلورى لا نارا لا برق / ضهيد يوعد / تاج حجرى يولد / طلل يتمرد / نغم يسرى .. بوح يرتد / مومياوات لطيور ( أبى منجل ) / تتناجى أو تتوحد / حفت أبصار .. أسماع / أرواح رفت أشباحا حولى / من يرقبنى فى قلنسل الأقداس / ويعد على الانفاس ؟ /

غيم يتورد أو يتبدد / شجر وهمى يولد أو يوقد أو يخضل / لا ضوء ولا ظل / لا حلم ولا صحو / لا رنة عيدان لا نفح بخور / لا أزمانا لا أوطانا لا غربة / فالكون صلاه / فى وادى الأشمونين / الا نأمه / من أين أنت ؟ / بزغت نجمه / امتدت ثم ارتدت ؟ / عصفور الجنة ؟ / أم مهجة ( ايزيس ) انفطرت دمعـة / للميلاد الثانى انبثقت شمعة / للحب الأول ؟

لم أسمع فى حياتى مثل هذا الصمت الذى يشـبه صمت البحر . أمواج وأصداء خفية تحيط بى من كل ناحية بل تغمر روحى . ليس ثمة مكان فى عالمنا الأرضى يرتل مثل هذا النغم . وكأن العالم يولد هنا أول مرة أو كأن المكان معبر الى العالم الآخر .. أسمع أصداء ناى سحرى من بعيد كأنه موسيقى بتهوفن فرعونى .. تراتيل اخناتون وصلواته مازالت ترن فى الآفاق ..

لم يدر بخلدى قط ما جاء فى نشيد الانشاد لسليمان الحكيم : الكل باطل ، باطل الأباطيل ، قبض الريح وحصاد العنكبوت اا ولعل تلوت الآية القرآنية : ( ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ) . واسترسل القصيد : ( واد قدسى / لا زرع ولا ماء جارى / لا أرغول يحدو لا لحن معاد / ودهور تمحى فى لمحة / لم يبق سواها أغنية

الممتد ؟ تراه كان يناجى اخناتون أقدم الفلاسفة الموحدين ويردد بعض تراتيــله ؟ ففى هذا الوادى غير بعيد من منطقة الأشمونين أطلال مدينته « اخيتاتون » التى ضاق وقتنا عن زيارتها فأرجأناها الى حين ٠

## فى منديل الذكرى

غادرنا « تونة الجبل » والطيوف تتداعى : ( رؤيا « ايزادورا » أم ذكرى طه حسين / همس ســـار فى مرقبه العــالى / يتعبد أصباحا ٠٠ أســـحارا / يتلو أوراق « الأيام » / أوراد « دعاء الكروان »/ ناى ناء سحرى يفترش الرحب / كثبان رمال ٠٠ موجا أسطوريا / وفضاء يطوى فى منديل الذكرى / جسد حانوط فى الأكفان ومرثية / تبكى فى الجدران / تنعى « ايزادورا » / طيف الأجسام النورانية ظل الموت ) ٠

لا ٠٠ ليست هذه أشباح الموت ، بل هى أطياف الخلود ، وتلك ترانيمها وتراتيلها تغمر الآفاق حولنا ٠٠ وهاأنذا أصحو على حلمى القديم برؤية بلد أبى وأجدادى حين أقلتنا السيارة على طريق العودة الى المنيا وبعدها الى القاهرة ٠٠ يستأذننا « نبيل » أن نتوقف قليلا ليزور شقيقته المقيمة فى « الفكرية » ــ أبو قرقاص ــ يعود بعد قليل ٠٠ ونستأنف مسيرتنا ٠٠ ألمح على جانب الطريق ــ وعلى يميننا ترعة الابراهيمية ــ لافتــة زرقاء مكتــوبا عليهـــا « منسافيس » آه ٠٠ هذه هى قريتى التى لم أرها من قبل وعشت ما عشت مسكونا بالحنين اليها مفعما براحة اليأس أو عذابه ٠ ما سلوت لحظة هذا النداء الخفى ، وكأنى « عزة » صاحبة الشاعر « كثير » اذ يقول على لسانها :

وان ســـــلوى عن جميل لســـاعة
من الدهر لا حانت ولا حان حينهـا

فانت الآن حورية من حوريات العالم الآخر .. ها هى فصول العام تهديك إياء الطهور الخاص بشعائرك .. فالشتاء يقدم لك اللبن وزيت الزيتون .. ويزين جبينك بزهور النرجس .. ويبعث الربيع لك بشهد النحل والورد المتفتحة .. ويضع على صدرك زهرتك المفضلة ويهديك الصيف الشراب البارد من عصير الفاكهة الشهية .. وينثر عند قدميك الأزهار البيضاء العطرية ) .

ودعنا « ايزادورا » ، وفى القلب ما فيه من الحسرات ، لنلتقى بطيف طه حسين مرفرفا على استراحته التى يفوح فيها عطره .. فى هذه الشرفة كان يطل بعينى « سوزان » رفيقة حياته فى السراء والضراء على الصحراء المترامية التى تكتنز فى جوفها آثار أعظم حضارة فى التاريخ ، فالذى اكتشف منها وأودع المتاحف أو ترك فى مواضعه لا يعدو أن يكون قطرات من بحر وغيضا من فيض ، هكذا سرنا على رفات أجدادنا فى هذه المنطقة السحرية ، ونحن نردد قول أبى العلاء المعرى :

**خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض الا من هذه الأجساد**

**وقبيح بنـــا وان قـدم العهـد هوان الآباء والأجداد**

وقول الشاعر الخالد عمر الخيام فى رباعياته ، ولعله كان متأثرا بفيلسوف المعرة :

**فامش الهوينى إن هذا الثرى**

**من أعين ساحرة الاحورار**

همسا كنت أتحدث مع الصديق نبيل زكى .. ونحن نستند على ســـور الشرفة ـــ عن العميد .. نستبطن ذكرياته عن قريته « عزبة الكيلو » التى لا تبعد عن استراحته إلا بمسيرة ساعة أو بعض ساعة .. ترى ما الذى كان يدور بخلده فى اطلالته على الوادى

الممتد ؟ تراه كان يناجى اخناتون أقدم الفلاسفة الموحدين ويردد بعض تراتيـله ؟ ففى هذا الوادى غير بعيد من منطقة الأشمونين أطلال مدينته « اخيتاتون » التى ضاق وقتنا عن زيارتها فأرجأناها الى حين ٠

## فى منديل الذكرى

غادرنا « تونة الجبل » والطيوف تتداعى : ( رؤيا « ايزادورا » أم ذكرى طه حسين / همس ســـار فى مرقبه العـالى / يتعبد أصباحا ٠٠ أســـحارا / يتلو أوراق « الأيام » / أوراد « دعاء الكروان »/ ناى ناء سحرى يفترش الرحب / كثبان رمال ٠٠ موجا أسطوريا / وفضاء يطوى فى منديل الذكرى / جسد حانوط فى الأكفان ومرثية / تبكى فى الجدران / تنعى « ايزادورا » / طيف الأجسام النورانية ظل الموت ) ٠

لا ٠٠ ليست هذه أشباح الموت ، بل هى أطياف الخلود ، وتلك ترانيمها وتراتيلها تغمر الآفاق حولنا ٠٠ وهاأنذا أصحو على حلمى القديم برؤية بلد أبى وأجدادى حين أقلتنا السيارة على طريق العودة الى المنيا وبعدها الى القاهرة ٠٠ يستأذننا « نبيل » أن نتوقف قليلا ليزور شقيقته المقيمة فى « الفكرية » ـ أبو قرقاص ـ يعود بعد قليل ٠٠ ونستأنف مسيرتنا ٠٠ ألمح على جانب الطريق ـ وعلى يميننا ترعة الابراهيمية ـ لافتـة زرقاء مكتـوبا عليهـــا « منسافيس » آه ٠٠ هذه هى قريتى التى لم أرها من قبل وعشت ما عشت مسكونا بالحنين اليها مفعما براحة اليأس أو عذابه ٠ ما سلوت لحظة هذا النداء الخفى ، وكأنى « عزة » صاحبة الشاعر « كثير » اذ يقول على لسانها :

وان ســـــلوى عن جميل لســـاعة

من الدهر لا حانت ولا حان حينهـا

# يوم زرت ضريح جدى الأعلى فى الصعيد

قالت رفيقة العمر : لابد مما ليس منه بد ، تعنى أننى ملتزم بالبحث عن الجذور مهما شقت الطريق • ايمانها راسخ بأننى من سلالة الحسين سيد الشهداء كما حدثتها مرارا أمى رحمها الله ، وأننى حفيد لعارف بالله اسـمه الشيخ على الحافى يؤم الناس ضريحه فى « منسافيس » ، ويقيمون له احتفالا دينيا كل عام يأتى اليه المريدون من كل حدب وصوب • وقد أطلق عليه « الحافى » لأنه ـ فيما يقال ـ سافر من مقامه بالمغرب الأقصى الى المشرق قاصدا أداء فريضة الحج فى الحجاز ، وليزيد ثوابه عند الله سار حافى القدمين ، حتى اذا بلغ قرية « منسافيس » فى المنيا كان قد بلغ به التعب مبلغه ، فألقى رحاله فيها ووافته منيته بعد حين • وهنالك رواية أخرى فى تفسير هذه التسمية ، وهى أن سيدى على الحافى كان غياثا لكل من يقصده ناشدا مساعدته وانقاذه من الكربة التى ألمت به ، وقد بلغت مروءته أنه كان يهرع الى نجدة كل من يعلم أنه يعانى محنة دون أن يجد وقتا للبس نعليه ، مخافة أن يتأخر عن اسعاف المكروب ، ومن ثم أطلق عليه ( الحافى ) •

ساورتني الريوب فحاورت شريكة الحياة : ما الذى يثبت الحقيقة ويميز بينها وبين الأسطورة ؟ ما أكثر من ينسبون أنفسهم الى الحسين تباهيا وربما تعاليا أو تمويها كما فعل ملك فى المشرق وآخر فى المغرب !! قالت : هنالك شجرة عائلتك الموثقة من الأزهر ما زالت فى حوزة بعض أقاربك وهى تؤكد هذا الانتماء ٠ قلت : ما أسهل الحصول على مثل هذه الوثيقة ٠ ان هى الا رغبة روحية منك تتعلقين بحلم تحقيقها ٠ قالت : اسمك آخر الأسماء المدرجة بالشجرة ٠٠ وأمنيتى أن تدرج اسم ابننا هشام ٠

عز على أن أخيب أملها فقلت : لابد من صنعا وان طال السفر ٠ وشددنا الرحال ا لى المنيا فى صباح مشرق كشمس اخناتون ٠ وهناك فى الفندق الذى يحمل اسم أول الموحدين الفرعون الحالم عرفت مفتش آثار من عشاق الشعر وعرفنى ، وأبدى استعداده لمرافقتنا الى منسافيس ٠ قلت : ليس قبل أن تتحرى عنا اذا كان بعض أهلى على قيد الحياة ، فقد مرت عقود من السنين منذ هاجر أبى من البلدة ٠ هاتفنى ليلا : وجدتهم ٠٠ شيوخ من أقربائك لكنهم صباحا فى الحقول وفى المساء يعودون الى منازلهم ٠

فى درب ترابى طويل ملتو بدأنا مسيرتنا فى قرية آبائى ٠٠ كانت حافية القدمين مثل وليها الصالح ٠٠ وخيل لى أن القرية الفرعونية التى كانت فى موضعها منذ آلاف السنين كانت أحسن حالا ٠٠ البيوت الطينية متلاصقة كأن بعضها يحتمى ببعض مثل أطفال القرى وقاع المدينة الكبيرة ، وهم متراصون فى أكوام على الأرصفة فى الشتاء التماسا لدفء الأجسام الهزيلة حين تتلاحم ٠ كان الاستثناء من القاعدة عدة منازل بناها أصحابها بالطوب الأحمر بعد أن عادوا من الخليج حيث باعوا قوتهم العضلية أو ما حصلوه من علم لقاء دراهم معدودة أبت الا أن تتحول الى أحجار ٠٠٠

بدأت ابنتى تلتقط صورا تذكارية فى هذه المناسبة التى لم تخطر قط على البال ، وتحلق حولها بعض الصبية ظنا منهم أننا سائحون • وبين الوجوم حينا والاحساس بفرحة تحقيق الحلم القديم حينا آخر تداعت خواطرى مثل شاعر عربى قديم على أطلال الأحبة الغائبين • بلغنا ضريح الشيخ ونودى على حارسه • وكانت المفاجأة أننى وجدت محفورا على الحائط أعلى الواجهة تاريخ وفاة الولى الصالح ، فاذا هو يرجع الى نحو ألف عام • راجعت شريكة الحياة فى حقيقة نسبى • تشبثت بحلمها •• قالت ان أجدادك فيما علمت من والدتك معمرون ، لم يمت مبكرا الا والدك ، ومن ثم فان الشيخ هو جدك العاشر •

جاء الحارس ولم يكن لديه علم بسيرة حياة الولى وموته • وبين ظنى ويقينى دخلنا الضريح ، خلعنا نعالنا •• وضعنا فى صندوق النذور ما شاء الله أن نزكى به وقرأنا الفاتحة، وتلبستنى حالة من الخشوع ما عرفتها من قبل • الحياة الموت ••البعث ، ثلاثية اللغز الأبدى•• وحين عدنا الى القاهرة لم أبت ليلتها وليلات بعدها الا بعد أن فرغت من كتابة قصيدة ملحمية عنوانها ( الضريح ) • لم تكن على نسق ما كتبت من قبل لأننى لم أمر بمثل هذه التجربة الروحية طوال حياتى ، لا أستثنى غير مرة واحدة سمعت فيها شقيقتى تنادى جدنا وجدتنا فى أثناء نومها وكانت مريضة طريحة الفراش ، ويدور حوار بينها وبينهما فى حضورى، وتتحدث فيه عن وقائع حدثت قبل مولدها أو حينما كانت وليدة • ولكن هذه القصة العابرة لم يكن لها أثر فى شعرى •

بعد أن صحوت ووجدت بين يدى قصيدة ( الضريح ) قرأتها بعينى قارىء ناقد ، فاذا بملمح صوفى يتغشاها لم يكن لى به عهد

من قبل . فعلى كثرة ما قرأت واستوعبت من شعر ابن الفارض فى تائيته الكبرى وشعر محيى الدين بن عربى وغيرهما من الشعراء المتصوفين لم تنعكس على قصائدى رؤيتهم ولا أسلوبهم ، فقد كنت ومازلت أومن أن الشاعر ابن الحياة الموارة بالصراع والمصور وقعها فى نفسه ونفوس الآخرين ، ومن العبث وانعدام الجدوى أن يتعلق بأستار الأوهام الميتافيزيقية . لقد خلقت الحياة على الأرض لنحياها ولا نهرب منها الى الغيبيات والى الأبراج والصوامع العلوية العاجية .

## الدماء تغطى الشوارع

ان الأدب عامة والشعر خاصة لا ينبغى أن يكون مداده من زيت المصابيح ، ولكن من أشعة الشمس وفى وضح النهار ، من عرق الكادحين ومن وحى دماء المستشهدين دفاعا عن حقوق الانسان . فى مرحلتى الرومانسية كنت أغنى الخد الحبيبة وأشبهه بالورد ، ثم ارتطمت بأرض الواقع ، ورأيت الدم يخضب وجوه الفدائيين والفدائيات مثل دلال المغربى الفلسطينية وسناء محيدلى شهيدة الجنوب اللبنانى ، فأفقت من غيبوبتى ، وغنيت للأبطال الذين ضحوا بدمائهم فى سبيل تحرير الملايين من ضحايا الاستعمار والاستغلال والطغيان . ورددت بيت محمود حسن اسماعيل :

**يقولـــون عن الشـعر ابيض هادئـا**
**وكيــف تغنى فى الهجــير البـلابل ؟**

وقول بابلو نيرودا شاعر شيلى : كيف تدعوننى الى الغنـاء والدماء تغطى الشوارع ؟ . وفى رأيى أن فننا بلا قضية هو فى حقيقته مهرج كما قال برنارد شو . ولكننى آمنت فى الوقت نفسه أن سمو المضمون لا يكفى وحده لخلق شاعر كبير بل لابد من توافر شروط الابداع الفنى .

لذلك امتزج الملمح الصوفى فى قصيدة ( الضريح ) بقضايا الواقع اتساقا مع طبيعتى الحياتية والشعرية ، فكان الطائر المحلق فى الفضاء سرعان ما يهبط الى الأغصان حيث بنى عشه ، بل الي الأرض يتزود ويرتوى منها ولا يطيق فراقهـا . وتناصت هـذه القصيدة مع النغمة الأساسية فى قصيدتى « حزمة من الجذور » و « الخروج الى الجنوب » وهى الحنين الى الجذور والشعور بالغربة بعيدا عنها ، وعادت النخلة التى حملتها من الصعيد الى القاهرة تملى على قصيدها :

**تقاذفتنى فى الغداة الريح والدروب والغروب**

**تلك الذؤابة التى حملتها من نخلتى**

**حين خرجت للجنوب**

**قد جملتنى ، أصبحت ظل الذى يحرسنى**

**وسادة فى الريح أو غمامة**

**بيضاء تحتوى اغترابى**

**عصفورة ياسى جناحها لما بى**

**فيستطيل ثم يستدير نائيا**

**عنى الى**

**كأننى قرين نخلتى الخفى..**

**هذا الأديم العنبرى**

**كحل العيون المسدله**

**فوق العيون التمله**

**لنفحة الريحان والليمون واللبلاب**

لم أخص قرية مصرية بعينها بخطابى أو حوارى من قبل على كثرة ما استلهمت الريف وعشت فى بعض قراه بمحافظة المنوفية ، إذ كان همى دائما تصوير الانسان ••• تصــوير معاناة الفلاحين الفقراء الأجراء وصــغار الصيادين المقهورين من الأغنياء الذين احتكروا الصيد بقوة نفوذهم لدى الحاكمين وما يقدمون من رشاوى ، وبقوة أسلحتهم النارية وجرائمهم التى تقيد ضــد مجهول ، كما صورت عمال التراحيل البؤساء • أما فى قصيدة ( الضريح ) فقد استقطبت « منسافيس » أبياتى ، لأنها قرية أبى وأجدادى فلى بها علاقة خاصة ، كما أنها مدفن جدى الأعلى ولى الله ان كان حقا من جدودى وكنت من شجرة عائلته •

وحين وصفتها بدت فى قصيدتى موشحة بسحر جمال الطبيعة الريفية الذى وشيت به أشعارى الرومانسية قديما : الماء الجارى والخضرة والنســيم العليــل ، وعبير الزهور والرياحين الفاغم ، وقدود الصفصاف المياسة اتى تستحم ذوائبها فى الترعة وعرائس النخيل :

**من ذا اجتبى هذا التراب**
**من بين آلاف النجوع والقرى ؟**
**شف حنانا مثل أحداق النجوم**
**رف حنينا مثل سعفات النخيل**
**واغصن الصفصاف فوق مائه المعين**
**ورق حتى صار عشبا وندى**

لم تعكس هذه الصورة الواقع ، ولكنها عكست رؤية العاشق لمن يحب ، وحسن فى كل عين من تود كما يقول عمر بن أبى ربيعة •

ولكن هذه الرؤية سرعان ما تبدلت حين ذكرت أبى وهو يغادر القرية وأحبابه فيها سعيا الى المجهول ، وكيف سرت على التراب الذى حمل خطواته ثم ودعه ، ثم تذكرت زيارتى لضريح الشيخ وانتابنى احساس بالانتماء اليه • واختلطت رؤاى التى انبثقت من الموروثات المستكنة فى تكوينى ، والحضارات التى تعاقبت على وطنى وأشربتها منذ العهد الفرعونى حتى اليوم ، فاسـتطردت متحدثا عن شجر الصفصاف :

**يحنو على خطوى الوئيد •• هل رأى**
**خطو أبى فسار بى الى الضريح ؟**
**لا •• لم يكن مثواه •• كان الضيف جده**
**وكنت ـ يا للشبح الشاجى ـ حفيده**
**وبيننا آلف من السنين •• بيننا**
**الف شكاة زلزلت**
**أصداؤها الوادى لفلاح فصيح**
**كأنما عاد المسيح**
**يصبغ وجه الأفق والصحراء والنجوم**
**بريشة من دمه المسفوح**
**ومريم البتول**
**تسقى الوهاد والسفوح**
**من دمعها الخضيل**
**ليولد الزيتون والكروم والنخيل**
**فى الطلل العقيم**

وإذا الناس كلهم في اهابي

. هكذا كان طبيعيا أن أعود بفكري الى حقب التاريخ المختلفة ، وأن يتعانق بل يشتبك الفكر بالروح التي اشتعلت بعد همود وإغفاء حين جلست في الضريح .. حقائق وأوهام ، وعى ولا وعى .. مشاهداتي وتأملاتي وقراءاتي كلهـــا صهرت في بوتقة واحدة ، وتجمعت في كياني الفرد كل النقائض : الجسد والروح ، الحياة والموت ، الحكمة والجنون ، الحقيقة والأسطورة ، اليقين والوهم ، الأنبياء والشـــعراء الباحثون عن معنى الوجود وغايته ، الدنيـــا والآخرة ، الصراع والمصير .

هل تقمصتني روح أبي العلاء المعرى أم روح الخيام ، عالم ابن عبد الجبار النفرى أم الحلاج ؟ ولعلى رددت حينئذ قول ايليا أبي ماضي :

خلت اني اصبحت في القفر وحـدى
فاذا الناس كلهم في اهابي !!

صارت نفسي طبقات بعضها فوق بعض ، لم يقرب احداها أعداء البشرية ، وانما سكنها وأطل على من شرفاتها جموع الذين يعطون ولا يأخذون من الفلاســـفة النورانيين والشعراء الحالمين بانتصار الحرية والعدل الاجتماعي . وقد التف حول هؤلاء أبناء السـبيل يهيمون على وجوههم بحثا عن كسرة خبز نظيفة وكأس حليب لطفل يتيم . وكان الشهداء فوق الطبقات جميعا من الفدائيين الذين ضرجت الأرض دماؤهم ، في سبيل تحرير وطن وانقاذ أسرى من براثن الطغاة ، وليذهب الزبد جفاء ويبقى ما ينفع الناس في الأرض ، احتشدوا كلهم في حضرة الشيخ دفين « منسافيس » وقد تحولت دماؤهم الى أنوار لا مثل أشعة الشمس الملتهبة ، بل مثل الليالي المقمرة وطلعة الربيع من جوف الشتاء :

رؤای حامت حول دارة القمر
وطاف بی ومض من الجنون
سلة أزهار .. وعاء جمر
مسری دموع .. زق خمر
ذکری فدائی .. نداء ثار
جرح نبی یغتفر
وهمی یخالط الیقین
حقیقتی أسطورة الوجود
أیدی العناه

ترانيم وتراتيل تملأ أفق الضريح ، يعانق طيف أبى روح جده الولى ، وعليهما يرفرف جناحا أوزيريس ، الكل فى واحد والواحد فى الكل . الحدائق والجبال تردد الأصداء ، وعلى فمى ينساب النشيد :

حديقتى مدينة معلقه
فوق جبال الملح والرصاص
والأغنيات الشبقه
الى شواطىء الرحيل
تعلتى معزوفة الخلاص
للطائر المهاجر الطريد

فجأة تتعالى مناحة من ايزيس وأرانى بعض أشلاء أوزيريس والحسين ، ويهدهدنى طيف أمى وأنا أنحدر الى قبر الشيخ وقد علت صرخاتى على رؤية الدماء . فى احدى يديها اكليل من زهر اللوتس وفى الأخـــرى ورقة من البردى استخرجتها من وعـــاء نحـــاسى :

اشهد « أوزير » على الغرب
يوارينى ضريح الشيخ
« ايزيس » توم النائحات
يجمع أشلائى الحسين
أمى قديما عللتنى كى أقاوم الشتات
بلوحة من ورق البردى أودعت
كأنها تميمة قارورة من النحاس
مختومة بحفنة محروقة من طين
شـــاهدة بأننى
ذؤابة من غصن « زين العابدين »

الشـــــجرة :

أسلمنى الضريح الى ذكر شجرة العائلة التى رأيتها فى صباى لدى قريب لنا من أسرة أبى كان يعمل فى القاهرة ثم رحل عن دنيـــانا ، واحتفظ بعض الأهل المقيمين بالقرية بها ، وأبوا أن يســـلموها الى أمى تذكارا من أبى رحمه الله ودليلا لى ـ كما قالت لى ـ على انتمائى الى عترة رسول الله ، فاسمى واسم أخى

الأوحد مدرجان بالشجرة فى ذيل القائمة التى يبلغ طولها عديدا من الأمتـــار ٠

كانت رؤيتي لهذه الشجرة حدثا صغيرا عارضا فى حياتى ، وحين بلغت مرحلة الشباب ظل كامنا فى بؤرة اللاشعور دون أنه يطفو على السطح بفعل منير خارجى ، ولم ألق بالا لالحاح زوجتى فى مطالبتى بالحصول على الشجرة ٠ ويرجع ذلك الا الى متغيرات الحياة فقط ، ولا الى عدم ايمانى بصحة هذه الشجرة وغيرهـا مما يحوزه بعض الناس ، وانما الى واقعة قديمة تحولت الى عقدة نفسية ، وهى استيلاء أهل أبى ــ كما حدثتنى أمى رحمها الله ــ على ما تركه أبى فى قريتــه من أرض ونخيل ، واصرارهــم على موقفهم من أكل مال اليتيم حين سافرت الى « منسافيس » للمطالبة بحقوقنا ، فاشترطوا أن تتزوج رجلا منهم حتى لا يستولى غريبه على ذلك المال ، وذلك تقليد ريفى صارم جائر مازال ساريا حتى اليوم فى كثير من البلدان الريفية فى الصعيد والدلتـا ٠ وقد رفضت ذلك الوضع وعادت الى القاهرة حزينة مقهورة ، وعاشت فى كنف أبيهـا الذى كفلنا ٠ وحين قرأت معلقة طرفة بن العبد استوقفنى بيته المأثور :

**وظلم ذوى القربى أشـد مضاضـة**
**على المرء من وقـع الحسام المهند**

ولكن زيارتى لضريح جدى الأعلى حسبما جاء فى الشجرة وقعودى مع أسرتى بين يديه أيقظنا ما كان غافيا ، وسارتا بى فى مسرى آخر يختلط فيه الواقـع بالخيال ، وتشف الروح حتى تعانق طيف الشيخ ٠ وتسمق الشجرة كأنها نخلة الصعيد التى حاورتها وحاورتنى من قبل لتصبح « الثيمة » الأسـاسية فى الجزء الثانى من قصيدة ( الضريح ):

وتمتمت : اليك هذى ( الشجرة )
كنزا خبيئا من قرون
ذخر اليتيم
هدية من جدك الولى
وقال صاحبى :
رأيت جذوة من نارها
طالعة من قلبك الطعين
كأنها شقائق النعمان
جادلته فمد لى زهره
مخضوبة الحروف من ديوان شعر
عليه خط اسمى وقال لى :
اقرأ كتابك المبين
كالبيرق المنشور
هذا الشذى الفواح فى السطور
مثل عبير النـد والبخور
بعض دم الحسين
فانظر تر الميلاد والنشور
فى لوحك المسطور

ومثل أهل التصوف شعرت أننى على قاب قوس أو أدنى من مرتبـة الحلول ، لا حلول الحلاج الذى عبر عنـه بقوله :

( ما في الجبة غير الله ) ، وانما حلول الشيخ الحافي في بدني ، أو صعود روحي لتتوحد بروحه . وأحسست كأن طاقة من النور في الضريح قد انفتحت أمامي وحولي ، لأرى ما لا يرى الا في أحوال الكشف والتجلي .. استغفرت لذنبي حين لم أبر بأهل أبي على الرغم مما فعلوا ، وكان أحرى بي حين بعثوا بواحد منهم الى في القاهرة وكنت ذا منصب ليصلوا ما انقطع بيني وبينهم ، ولا نأسى على ما فات ، كان أحرى بي أن أنسى أو أتناسى الماضي ، وأفتح صفحة جديدة من الود وصلة الرحم ، ولكنني لم أفعل .

خاطبت روح الشيخ التي تصورتها ماثلة تحف بنا أو تطل علينا ، معتذرا عن جحودي ومفضيا اليه بشجوني وهموم رحلتي التي ما عرفت خلالها الا المعاناة والتناقض بين هويتي كشاعر ومهنتي التي استغرقت شبابي وكهولتي :

**بالله يا شيخي المسجى في لفائف الضياء والظلال**
**يا ايها الطيف البعيد يا مزاره القريب ها انا**
**اجثو لديك**
**كانني شهدت يوم ( كربلاء )**
**احمل صلباني واكفاني ارجو المغفرة**
**لانني جحدت من قبلك فيض ( الشجرة )**

**الرايـــة :**

وتفجرت جراحات الواقع والماضي القريب فاذا بي أضمن قصيدتي ( الضريح ) قصيدة من ديواني ( فارس الأمل ) بعنوان ( الراية ) بعد أن انبعثت من قرارة نفسي ترجني كالزلزال :

قتلت مرتين :

فمرة نفسى

لأننى رفعت راية القناعة

وكان لى غلام

رأيت فيه وطنى المجرح الشهيد

يعود أخضر الاهاب ضاحك العينين

وكان لى وتر

أطفأت فيه شجنى المخاتل العنيد

لأننى استبدلت بالذين آمنوا

بأننى النبى فى ثياب مارد

أما وطفلتين

وبعتهم

لقد استدعى اعتذارى عن عدم البر بفقراء أهل أبى الريفيين، وتحميلهم جريرة القادرين منهم على عون الأطفال اليتامى ، اعتذارا آخر عن قبولى مهنة رجل السلطة المسلط على الفلاحين البؤساء مهما حاول أن يدافع عنهم . لم أغفر لنفسى فى الحالين ، فقد آثرت نفسى وأبنائى بمحبتى وتضحيتى . وقد تمثل لى جمع هؤلاء الفلاحين العناة فى أبى ، وكأننى شعرت بالندم لتنكرى لهم أو انفصالى عنهم وعدم أخذ الثأر من ظالميهم :

ومرة أبى قتلت

قتلته لأننى مشيت مختالا على قبره

ونمت عن ثاره

وكانت الأفعى التى التفت على صدره

ترمقنى بنظرة جوفاء

وضحكة جامدة صفراء

رجعت خالى الوفاض

تفاحتى مره

أنا رقيق الأرض شاعر الأمير

وجاءت لحظة التطهير والغفران حين جثوت فى مدفن الشيخ، فاغتسلت من خطاياى كأننى أولد من جديد • تخلصت من الرداء الذى طالما وقف حائلا بينى وبينهم هؤلاء الذين باعدت أقدارى بينهم وبينى فكانت تقصينى كلما اقتربت •• الآن فى حضرة صاحب هذه المقبرة تتزايل كل الأوهام القديمة التى تلبستها من عنفوان السلطة التى مثلتها ومن صولجانها ، ولماذا لا أقول من طغيـانها والشرطـة كانت دائما ـ كما قال الفيروزا بـادى فى قاموسه ـ خدم السلطان مهما تزينت بالشعارات • حادث صغير قد يكون عرضيا يصنعه فرد صغير منهم كفيل باثارة كل المواجع والعذابات المترسبة فى وجدان الريفى المصرى ، استعمال القسوة فى معاملة أحدهم ولو كان مرتكبا جريمة ضد الجموع يوقظ أفعى البغض من سباتها ، ولا تغفر حسنات الدفاع عن الأنفس والأموال والأعراض السيئات •

وهكذا سئمت الأمر كله ، وبيدى لا بيد عمرو رددته الى أهل السلطان زيهم ، وان كانوا يرون أن تنحيتى كانت بيدهم لا بيدى ، عقابا زاجرا لى ورادعا لأمثالى ممن قد تسول لهم أنفسهم

الخروج على الخط الأحمر ، وهو تثبيت هيبة السلطة بالعدل أو بالعسف ، فالضرورة تبيح المحظورات :

**واليوم ها أنت ترانى قد برئت**
**من دائى العياء ما ادخرت**
**من طارف أو تالد حتى أتيت**
**أشعل فى نيران لهفتى اليك**
**كل الذى ألبست من دروع زهوى**
**صولجانى صهوة الجواد والصهيل**
**قربى الذى اشتهيت من شفاعتك**
**لدى أبى الذى مضى**
**ولم تشيع نعشه حشود**

**رحلة الاغتراب :**

لم يكد يرد ذكر أبى مرة أخرى فى القصيدة بوصفه من أجفاد الشيخ حتى تداعت ذكريات هجرته من القرية الى مصر التى تكفل العيش الكريم فيما يحسب الريفيون لكل من قصد رحابها ، أليست المدينة التى لجأ اليها ودفن فيها أحفاد الرسول ، فحرستها عناية الله بفضل مقامهم فيها فكانت المحروسة ؟ ومازال أهلها يلتمسون البركة وقضاء الحاجات من أولياء الله الصالحين المدفونين بها ، فيزورون أضرحتهم ويستشفعون بهم مقدمين ما يقدرون عليه من قروش فى صناديق نذورهم ..

ما كان أبي غير واحد من هؤلاء الملايين . ولكن رؤيتي لهجرة القرية الى المدينة قد اختلفت عن رؤيتهم ، فرأيتها على حقيقتها ، رأيتها مثل وحش طيبة الرابض على أبوابها ليلتهم كل من يجرؤ على الاقتراب من أسوارها . هكذا تحدثت مع الشيخ عن مغامرة أبي حين ارتحل من ( منسافيس ) الى القاهرة المحروسة مثل كثير من أبناء الريف الذين ينتزعون أنفسهم من قراهم ويقتلعونها من جذورها جريا وراء السراب :

**يا شيخي الغافي في ضلوع قرية**
**مغلولة الأقدام حرة الغمام**
**يمامة في الغار أشجان نبي**
**هاجرها مغامرا أبي**
**أغرته غيلان المدينة المعلقة**
**فطار حتى احترقا**
**وغاص حتى انطفا**
**من قبل أن يسلمني مفتاحها لأنه**
**هوى على أبوابها المائة**
**في فكي الوحش الذي يحرسها**
**مدينة الأشباح والألوان والأوثان والحمقى**

ومرة أخرى تسلمني التداعيات واجترار الذكريات الى رحلة اغترابي بعيدا عن جذوري في موطن الأجداد ، كأنني سندباد ضل طريقه فترامت به الدروب والبحار والسموات ، أو ابن الرومي الطائر الغريد في غير جنسه كما وصفه العقاد ، اذ يقول مصورا قلقـــه :

ألا من يريني غايتي قبـل مذهبي
ومن أين والغـايات بعـد المذاهب ؟

لقد نذرت حيـاتي وشعري للدفـاع عن الفقراء في بلادي ومقاومة كل من يقف في طريق تحررهم من الفاقة والعوز ومذلة الاضطهاد في وطنهم، وهم ملح الأرض وأصحاب الوطن الشرعيون، ولكن خوفي على مكانتي الاجتماعية حال بيني وبين عناق بقايا أهلي الكادحين هناك في الصعيد ، مكتفيا بالحدب على أسرتي الصغيرة وذوي رحمي الأقربين • حتى أصدقائي وفيت لهم وعرفت معنى الحب والتراحم فيما أوليتهم من نفسي • فأي تناقض عشته بل أية ازدواجية ؟ عن هذه الحيرة وذلك القلق خاطبت شيخي وقد استبد بي الحنين الى الجذور :

بالله دع لي حفنة
من التراب أحتمي بها
دعني اليك أنتسب
فقد عرفت ما عرفت
غير اني قد مللت
قد ضللت •• قد غرقت
ضمني الى جناح قريتي الصغير

بين خطاب الغائب الحاضر والحديث عن الواقع الاجتماعي الذي كان ولا يزال تراوحت أبيات القصيدة ، ومن روح المكان وصاحبه الى جسد الشعب المتعب منـذ عرفته في الخمسينات ، انسابت سيمفونية الواحد في الكل والكل في الواحد • وشعرت

بى تحيطنى آلاف العيون ·· آلاف الأقدام ·· تتشبث بى وأتشبث بها كى نقاوم بعد أن سقط قناعى القديم ، وتمثل شيخى رمزا لكل الجموع :

**دعنا معا نطير**
**نطير ·· كلما رأتنا أعين الصقور**
**نحثو على وجوهها الكالحة الجارحة الجوفاء**
**ترابك المقاوم العنيد**
**حجارة من مارج سجيل**
**ليسقط القتام نستحم فى جداول السماء**

ثم عادت نبرة التصوف الهادئة الصافية كانسياب جدول صغير والمضيئة كنافذة على السماء والرفافة مثل أجنحة الملائكة ·· وتخيلت نافذة الضريح الصغيرة فى الجدار ليلا وقد أوقدت فيها شمعة لتدل على المقام وربما لتؤنس صاحبه ، فتذكرت يوم مررت بضريح الشيخ الخضر فى حى بولاق بالقاهرة وكان ذلك فى مطلع الشباب ، وقلت مالا يقال فى حق ولى الله ، فأصابتنى لعنته فى شكل سيل من الحجارة الدقيقة يرجمنى ، وكان فى صحبتى صديق الصبا الشاعر المحقق الأستاذ محمد محمود حمدان · فى تلك الليلة التى لا تنسى فتح أمام بصيرتى أفق جديد ، وبدأت أرتاب فى أفكارى عن عالم الأرواح والغيبيات اذ كنت أحسبها خرافات وأوهاما ·· كنت مكذبا فأصبحت غير مصدق ولكن غير مكذب فى الوقت ذاته · ومازلت كذلك حتى اليوم ، وان غدا الفكر ميالا الى التصديق :

هذا الثرى المنطفىء الوهاج يزكو
فاغما بشملتك
يرنو الى من شقوق شمعتك
مزدهيا بنضرتك
كأنه اللوتس والنسرين
مطوفا بهالتك
تضىء مثل الياسمين
تلك العيون السود حولى انتثرت
وطوقتنى وهى نور بالغيوم والوجوم
كأنها تعرف سرى
ترمقنى ... تنكرنى
تسقط عن وجهى القناع

ووجدتنى أهفو الى حالة تشبه الحلول عند المتصوفة ، فأتجرد من الجسد الطينى وأتحول الى روح نورانية ، تتحد بروح الشيخ التى أحسست بها ترف حولى . وخيل الى أن الخلاص الذى أبحث عنه يكمن فى هذا الاتحاد :

تلك العيون السود حولى انتثرت
دعها ترائينى قليلا كى امر
من ثقب هذا الليل .. كى أفر
من سجن هذا الجسد الغرور

كانت تلك أول مرة تراودني فيها فكرة سجن الروح فى الجسد والشعور بالرغبة في التخلص منه • ولعلى كنت متأثرا بقول أبى العلاء المعرى :

أرانى فى الثــلاثة من ســجونى
فــلا تســأل عن الخبر النبيث

لفقــدى ناظرى ولزوم بيــتى
وكون النفس فى الجسم الخبيث

**فى حضرة الموت :**

ولاشك أنها كانت خاطرة عارضة مرهونة بالظرف المكانى الذى أنشأها وهو المثول في حضرة الموت ، وأنها انبثقت من الوعى الباطن ، ذلك لأنها لا تتفق مع جوهر فكرى ومساره الذى لم يتغير كثيرا طوال حيــاتى ، فقد دعوت دائما للحياة واعتنقت ما قاله ناظم حكمت : ( ان أجمل الأيام ما لم يأت بعد ، وأجمل الأطفال من لم يولد بعد ) • وكان الفكر الاشتراكى ولا يزال مهيمنا على رؤاى واتجاهاتى • ولم أتحدث عن الموت فى فترة اكتمالى الفنى والعقلى الا فى سياق تمجيد الاستشهاد فى سبيل قضــية عادلة ورثاء الشهداء • استثنى من ذلك رؤيتى المتشائمة فى شبابى التى كتبت من وحيها قصيدة بعنوان ( حفار قبرى ) ، ومن قبلها سولت لى نفسى ـ وكنت فى مرحلة الدراسة الثانوية ـ أن أنتحر ولكننى جبنت أو وعيت •

على أن خاطرة الموت العارضة قد طالت فى القصيدة وكأننى كنت مسكونا بها فى أثناء محاورتى للشيخ صاحب الضريح الذى أنتسب اليه أو أود ذلك • ولا جدال فى أن الموروث الدينى قد نضح على هذه المحاورة :

هيىء لنــا فى روضتك
ظلا يؤاخي بيننا حتى أراك
أخف محمولا على شــذاك
قطرة ماء من لدنك
علالة اشفى بها قلبى السقيم
روحى العقيم

غير أن هذا الموروث امتزج بنزعتي الواقعية اذ لجأت اليــه من فر طسخطي على أعداء البشرية فى القرن العشرين الذى عشته :

ياشيخى المستعلن الخفي
ملتنى الشجون
أسري بى المدى لعالم ضنين
الا بأشباح الجراح والسراب
والدم والمأساة والمجون عالم الجنون

وكأننى اذ ألتمس من الشيخ الاجابة على تساؤلاتى أتمثله حيا أمامى ، وأناشده أن يجيرنى مما يحيط بى من عذابات الحيرة ، فهو رمز الكمال البشرى بعد أن عرج الى سماء الأبدية ، فانكشف له الغطاء ونهل من ينابيع الحكمة الصافية ، فأصبح فى قدرته القول الفصل ، وفى امكانه أن يسدد خطاى بعد أن تحول التراب الذى يضمه الى تبر نورانى من جلاء البصيرة وصواب الاشارة :

يا شيخي النائي الغريب
لم لا تجيب ألست منك
كما تداولت الرواه ؟
ان البلاد تناشد الأهل البقاء
وانت لى سكن وأهل
لم لا يصاهر ضوؤك الفينان ظل
بيدى ترابك نورك الصافى السخى فكيف لى
أن ارتقى طفلا جدائل دوحتك ؟
أتعلق الأغصان للقمر البهي
لأقول لك :
أنت الفلك
وأنا التراب يدور لا يدنو
يحن فيرتمى شوقا اليك
ويجن تحنانا لهمس من لدنك

وفجأة أتحول من مخاطبة الشيخ الى مخاطبة الوطن ، بل أناجي الوطن المتمثل عندى فى الشيخ ، أليس الوطن هو أصحابه والشيخ رمزهم وخلاصتهم ، حتى أنهم يتعلقون به فى مزاره كأنه أحدهم كما كان أيام حياته • ويتحول الهمس الخفى الى نداء ثائر هو عودة الى مذهبى وعقيدتى فى الحياة ، نضال شعبى حتى الرمق الأخير والعقبى للصابرين • لهفة الى انتزاع الحق من الباطل ، والحرية من براثن الظلم والاستبداد ورغيف العيش من أيدى

مختطفيه السوداء • وينبعث أمامي كل تاريخ مصر وتاريخ الشعوب جميعا في الصراع ، فتشتعل أبيات القصيدة تعبيرا عن المقاومة والثورة من أجل انقاذ المستضعفين في الأرض • قطرات جديدة من بحر قديم ، وتنويعات على لحن أساسي من قصيدتي التي طالما عزفت على أوتارها • فالوطن مازال يعاني رغم كل التضحيات ، ولا حل لأزمته الا المزيد من الاصرار على الفداء :

**وطنا أريدك لا يذل لغاصبيه**
**ارضا أريدك لا تهون**
**ماء تغص به حلوق مدنسيه**
**ويطيب وردا في خدود بناتنـا**
**وردا لأبنـاء السبيل**
**مهدا لأطفال يتـامى**
**موتا جميلا في سماوات الفدا**
**قطرا ••• ندى**
**وبساطة تدحو المدى**
**افقا يموت على شواطئه الردى**
**ويعيش ( متولى ) و ( شعبان ) الوديع**
**لا قهر يغتال المغنى لا دموع**
**ميراث ماء ارتجى لا ارث دم**
**نورا على نور لسمار الليال**

**متولى الصياد :**

يبدو أن ( متولى ) سيعيش فى داخلى حتى نهاية المطاف هو وأبناؤه ورفقاؤه فى قرية ( فيشا ) ، هذا الصياد البائس الذى نقلنى من وسادة الرومانسية الناعمة الى صخرة الواقعية ، حين رأيته شبه عريان فى ليلة شتائية فى قاربه الذى يضم زوجته المصدورة وأطفاله ، ثم تبين لى أن هذا القارب هو داره ومأواه ، وأنه لا يملكه بل يستأجره وقد عجز عن سداد ايجاره المتأخر ، فهدده صاحب القارب بطرده منه ليكون العراء مأواه هو وأهله ويسدل عليهم ستار الموت جوعا أو بردا !

( متولى ) هو رمز مصر الفقراء المساكين الكادحين ، وهو قدرى الذى لا فرار منه حتى تنقشع الظلمات ، والا فكيف دخل الى قلب القصيدة واتشح بردائها وأصبح جزءا من نسجها ؟ ان أسلوب تيار الوعى الذى قام عليه بناء هذه القصيدة هو الذى استدعى ( متولى ) ومأساته ، كما استدعى بعده الشيخ عازف القيثار على أبواب مقاهى القاهرة التى يرتادها المنعمون ولا يلقون اليه بالا ، واستوحيته قصيدتى ( الشيخ والقيثار ) وهو قرين متولى ابن القرية من حيث موقعه فى قاع السلم الاجتماعى • كلاهما يبحث عن رغيف خبز غير مبلل بالدمع له ولأبنائه ، يعمل ولكن أين من يجزيه : الناس أم القدر ؟ بل هم الناس لأن البشر هم القدر • هم يستفيدون من عمله ولكنهم لا يعطونه حقه •

ويعود النص الشعرى الى أفق شيخى مخاطبا ومسائلا ، وينبع النيل من خلال القصيدة فأراه بعين أبنائه المضيعين وبلدهم تفيض بالخيرات من زرع ونخيل وأعناب !! ولكن اللصوص والثعالب ينهبونها كما قال أبو الطيب المتنبى :

**نامت نواطير مصر عن ثعالبها وقد بشمن وما تفنى العناقيد ؟**

تنثال موجات الغناء الشجى واحدة بعد أخرى ، تهدأ ثم تعلو ، تعلو ثم تهدأ ، وينبلج فى ظلمات اليم نور الشسيخ كأنه المنقذ من الضــلال :

لم لا ترطب جبهتى الحرى
بلثم من يديك ؟
لم لا تجيب ؟
جد لى بقطر من نداك
أسقى به صبار روحى
شوك اشواقى اليك
أنا الجديب وانت هذا النيل
يهمى من سماك
انت الســناء
النجم فى الفلك البعيد
يعانق النخل المديد

**سيزيف مصرى عصرى :**

ولكن الهمسات والنجاوى تتحول الى صرخات كابوسية تعبر عن العجز عن تغيير الواقع ، عن سيزيفا وصخرته :

وأنا عويل الريح فى الأرض اليباب
دمعى الحبيب

جسدى النضيب انا الصليب
ودمى الخضيب
وأنا بقايا من هديل
يشدو بحلم المستحيل انا الصليل
يصدا على عتبات شيخى
ما ادخرت سوى الصدى
امحو به صدا الردى
بؤس القرون
ما بين قهر واحتماء
بين اختلاج للجنين وبين رؤيا للخلود
نم فى سلام
انى قريب من قريب

نغمة علمية غير مسبوقة فى شعرى الذى استغرق حياتى الا قصيدتى ( حفار القبور ) • ولعل الظروف السياسية والاجتماعية التى تلت نصر أكتوبر العظيم سنة ١٩٧٣ الذى استبشرنا به خيرا ، فلم تتحقق الرؤيا ، لعل تلك الظروف هى التى أملت على هذه النغمة اليائسة والنبرة السوداوية • ونظرا الى أن القصيدة دائرية فقد عادت مرة أخرى الى النخلة وهى رمز القرية ( منسافيس ) ، ومزجت بين الطبيعة الريفية وبين الواقع المعيش فى القرى وقيعان المدن ، من خلال رسم لوحات تشكيلية متتابعة تتراءى فيها النماذج البشرية التى تختلف فى مهنها وتتفق فى يومها وغدها ومصيرها ، ومنها عمال التراحيل الذين يمثلون

السخرة فى أبشع معانيها بما يصبون من قوتهم العضلية وعرقهم فى عروق أرباب الأموال والأعمال القـدامى فى عصر الطبقـات والجدد فى عصر الانفتاح والمقاولات :

خفت موازينى وأدمتنى
جراحات السنين وصرخة المستضعفين
بحثا عن الوادى الأمين
يتحرر الغادى اليه من المهانة والشقاء
من الجنون
وتظل ( منسافيس ) من حر الهجير
عمامة خضراء غراء الجبين
تعلو بقلبى نخلة
من نبعك الرقراق يا شيخى قرى للمتعبين
ثوبا لعـار ليس تستره الغيوم
كراسة تندى بها كف اليتيم
وتقرعينا بالحروف على كتاب
وسقيفة ياوى اليها النازحون العائدون
دفئا لعمال التراحيل العناه
رجما لطاغوت الجباه
شمسا على ابواب ( طيبة ) حرة
ومنازل ( الفسطاط ) نضرها المطر

وقد أثار ذكر مدينة طيبة الفرعونية والفسطاط عاصمة مصر الاسلامية قديما ذكر بلدة ثالثة تشبه ( برلين ) حين كانت مقسمة، وهى مدينة ( رفح ) اذ يحتل الصهيونيون نصفها ويقع النصف الآخر تحت السيادة المصرية • وقد رأيت فى زيارة لى بالعريش شيخا فلسطينيا فى القسم المصرى وهو واقف على الحدود ينادى بعض أبنائه المقيمين فى القسم الآخر عبر الأسلاك الشائكة الممتدة، وكان مشهدا رهيبا لا ينسى استوطن قلبى كما استوطن القصيدة، وحلمت فى اليقظة أن الشيخ قد ضم شمله واتحد النصفان :

والليل يسقط عن ( رفح )
لا نجمة معقوفة تلعو روابيها
ولا يرتد فجر
لا شيخ يسالنى الطريق الى ( رفح )
تدنو وتناى نطفة
قد شقها نصل وصال بنصفها المغلول صل
واستوحش الشيخ البنية والولد

واستدارت القصيدة لتخاطب الوطن مجردا لا مجسدا فى شيخى هذه المرة :

غيثا اريدك ايها المهد القديم
للأرض غرثى للسواقى عطلت
وطنا أريدك يا وطن
وطن الطريق الى ( رفح )

وطن الفرح

ومحبة الفقراء والصفح الجميل

لا يرجمون شموعهم غيا ولا يتجبرون

للنجم آيات وللقمر استدارته

ولم يخن الخاق

فاستقبلوا الروح الأمين وآمنوا بالنازلات

وأسلمني تيار الوعي الى العزف على وتر جرح قديم ، وهو منفاى الاختيارى في الجزائر ، وما أصابني من أبناء بلدى هناك حين رموني بالنكران للوطن ، أنا الذى عشت مهموما به ، وتمردت على مستغليه وخائنيه فأدرجت فى قائمة المغضـــوب عليهم ، لأن الوطن فى نظرهم هو السيد الحاكم ، من أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد كفر . ولكن موقف هولاء أخف وطأة من انقلاب القيم الذى شاهدته بعد عودتى من الجزائر سـنة ١٩٨٨ ، وتوحش القطط السمان ، وصمت المطحونين على ما حاق بهم من ضيم ، رغم سقوط الأقنعة وانكشاف أسطورة نزول المن والسلوى من السماء الأمريكية :

وطن أريدك يا وطن

للعائدين من المنافى

لا يرون قلوب من تركوا هواء

وبطون من باعوك للبؤسى ملاء

من بدلوا شمس الينابيع الوضاء

صمت التوابيت الخواء

صمتا له صوت الأنين

ويتعالى النغم صاعدا بانتصار الجموع وانهيار الزيف حيث تسطع شمس الحقيقة رغم كل ما صنعه أعداء وطنهم من غسيل الأدمغة ، وينشق أديم الأرض عن فرسان من رحم مصر كانوا منذورين لاقالتها من عثرتها والنهوض بها الى مدار الشمس :

وطنا أريدك يا وطن

تتفجر الصحراء أعنابا وعشبا للرعاه

تترنم الخطوات جذلى بالنشيد

تتصاهل الخيل الفتية آخذات بالنواصى

كل خـــلاف مريـد

فرسانها الغر الميامين العراه

الا من الموت المفجر للحياة

نحتت من الصخر الصدور

ومن مياه النيل سالت رقة وتوهجا

أيدى الربابنـة الحـداه

**أغنيــة النصر :**

وتترقرق أغنية عذبة صافية فى عشق الوطن الذى لا يموت، وكأنه طائر الفينيق الذى يبعث من رماده ويطلق جناحيه محتضنا النيــل والأفــق ، وتصبـح مصر جنة عرضها كعرض السماوات

والأرض خالصة للمريدين ·· الصباحات ندية معطرة بعبير الورود والرياحين ، والأمسيات نجاوى العاشقين فى ضوء القمر ·· لا غيم على النيل الجارى ·· لا دموع على خدود الصبايا ·· أعواد القمح الذهبية تحت شعاعات الشمس مفعمة بالسنابل ، والأطفال يغنون وهم يتسابقون ليمسكوا خيوط أشعة القمر المتراقصة المنسكبة على مياه الترع ، وعيون الأمهات ترمقهم فى حنان ، والفيوض تعم الوادى الأمين ·· وينتصر ( أوزيريس ) على قاتله ( ست ) بقوة نفس الايزيس وبأس وليدها ( حورس ) المبعوث من ( رع ) · وتتراءى على صفحة النيل ( حابى ) أطياف أحمس قاهر التتار ، وصلاح الدين قائد الزحف المقدس لانقاذ أرض الكنانة وأرض الأنبياء من الصليبيين ، وشهداء أكتوبر يعودون مهللين رافعين ألوية البطولة والفداء ··· صيحات الفرح والترانيم والأهازيج تملأ الرحب وتتردد أصداؤها فى الآفاق : مصر ·· مصر ·· النصر ·· النصر :

**وطنا أريدك يا وطن**

**لى فيك جذع ارتقيه**

**ولى غلالات النـدى**

**ولك ارتعاشات الجذور ولادة**

**للشمس بعد الشمس من جوف التراب**

**ومدى يعانقه الأبـد**

**مدد ·· مدد**

ثم تتشكل الرؤيا عبر تيار الوعى الباطن فى مناجاة ذاتية تبدأ من جذور الحنين ، والتوحد بتراب الوطن ، فيخفت اللحن

المصور للهموم التاريخية ثم يصعد لتجاوزها •• وتتردد أصداء ناى من بعيد يترنم بموال أحمر ثم موال أخضر، فى رحلة البحث عن الجذور ومجالدة الصخور ثم النجاة :

**مالى تنادينى الجذور فاستجيب**

**ولطالما كنت الجموح المستريب**

**يعتادنى شوقى الى الأكواخ**

**والسيقان عارية واخشى**

**ان احن الى الجذور**

**حجر انا قد فجرته رحى الليالى الدائرات**

**بالجمر والويلات للشعب الحزين**

**لكنما ابدا يسير على الجراح**

**على الرياح العازفات بشجوه**

**وبوجد موال وذكرى راحلين**

**موال الصبر :**

تتتابع المشاهد الملحمية للشعب المصرى السمح المعطاء الذى يمشى على الجرح ، وهو يشدو على مواله على أنغام الناى والمزمار ورقص الخيـل ، يسخر من غزاته ويجعل أرضه لهم مقبرة ، يدنسون تربته الزكية ، وما تلبث مواكبه وكتائبه أن تذروها رياح المقاومة وتطهر التراب منهم دماء الثوار ، ولأن الأرض لا تشرب الدماء ، فان الشهداء من هؤلاء الثوار يتحولون الى أشجار وارفة خضراء الظلال ، ويحيلون الصحارى المجدبة الى فراديس تجرى من تحتها الأنهار :

أبدا يسير على الليالى النازفات بنايه

يحنى الجبين

لكنه يبنى على الأطلال ما هدم الطغاه

يتقاسم العيش الضنين مع الشريد المستجير

أبدا يسير على الجراح مرنما لحن الخلاص

أبدا يسير

انها معجزة شعب يستعين بالصبر الجميل على مغالبة العواصفه ، ويحول الأغصان الى رماح ، ويشق بالمحراث هامات الجبابرة الطغاة • جبل يهزأ بالزلازل والبراكين ويظل يغنى للحياة وللخلود •• جمل حمال أعباء تنوء بها الجبال ، يمتطيه المردة من الغزاة والخونة ، ويغرهم صبره عليهم ، حتى اذا فاض الكيل وبلغت الروح التراقى ألقى بهم تحت قدميه مرديا ظلمهم وظلامهم، منتقما من استخفافهم به واستغلالهم لسماحته ، ثائرا بالحقد المقدس الدفين فى ضلوعه ، مؤمنا بأن الظلم ساعة والعدل الى قيام الساعة ، وأن الزبد يذهب جفاء ويبقى ما ينفع الناس فى الأرض :

أبدا يسير

الموج يعلوه فيأوى للقرار

متشبثا بصخوره وجذوره

حتى اذا ذرت الرياح

طحالب النهر الجنوبى الاله

بيديه أوبيد القضاء

أرسى قواربه على شط النجاه
واستضحك النوار والناى الحزين
وتداعت الأعراس بين حمائم الأبراج
و ( الأجران ) والظل الظليل
ورجع المزمار شدو النيل والأهرام
للصبر الجميل
صبر جميل لا يمل ولا يكل
أبدا يسير فان طغى الباغى يثور
جبلا تفجره أغانى الثار والحقد الدفين
جملا تحمل ألف ميل سوط جلاد
فارغى ثم أزبد جامحـا
كالموج يطوى جثة السفاح
فى قاع السفين
حبلا من اللعنات مجدولا
باعناق الولاة المترفين
والصابئين المارقين

تلك هى صورة شـعبنا كما وردت فى القصيدة : جبـل أو جمل أو حبل متين ، ولكن أقربها الى نفسى هى صورة الجمل القوى الصبور كصبر أيوب . ومع ذلك فان الموال العامى الآتى أشد وقعا فى نفسى لأنه يعبر أجمل تعبير عن أهم مقومات شعب مصر ورصيده النفسى التاريخى :

جمل الاحمال الصعاب
صلب لا يوم كل
صايم عن الزاد
لا حزن يوم ولا يوم كل
جابوا المحاوير صلب
على زنوده وشلوه شل
وشيلوه حمل آسى
غصب عن عينه وهو تعبان
اترجت الأرض من حمله
ولا يوم كل

**هذا ختـام الأمر كله :**

تميل شمس قصيدة ( الضريح ) الى الغروب بعد طوافها الطويل فى دروب الحياة والموت ، الحقيقة والوهـم ، ما قبل وما بعد ، وتتجمع كل الخيوط التى تنـاثرت لتغدو ضفيرة واحدة تمثل العودة الى الجـذور والفرار من قيود المدينـة الى ظـلال النخلة والمسلة والكنيسة ، ترفرف عليها روح الشيخ ولى الله الصالح ٠٠ جـدى الأعلى ، وتلتقى به فى معراجـه لتطوف معـه كأنها طائر المتصوفين الذين طالما رمزوا به الى الحقيقة الكلية المغيبة ، وكأنها تبعث من جديد ، وأرانى نطفة فى رحم الكون تطوف ما تطوف وتحن الى لثم الجذور ، وقد تحول الشيخ الى نخلة ووطن :

ريح انا ؟ مالى ارود المستحيل
لثم الجذور
شيخى نواة فى الثرى
سمقت فصارت نخلة
وانا الهشيم أنا الرفات انا الدفين
من بعد ما هجرت رضاعى الأمهات
أنا ذا أعود
من رحلة الاسراء فى فلك الجحود
أحبو الى مهد الضريح
شلوا جريح
طيرا يفر من القيود
كى يستظل بنخلة ومسلة وكنيسة
ومنارة خضراء فى حضن الجنوب
وتظل تتبعه المدينة : عد الى
فلا يجيب
يا شيخى الحانى الرحيم
نم فى سلام
قد جادك الغيث العميم
وجاءك الغصن اليتيم
فانثر عليه ذؤابة من نخلتك

واخفض جناح محبتك
وامدد له من راحتيك
عنقود كرم لا يضام
يسقى به نبع الغمام
ماء الجذور
عودا على بدء قديم
ليكون ميلاد جديد

* * *

# من السويس الى أرض البطولات فى سيناء

فى ضحى العمر أو زهرته ـ بتعبير العبقرى توفيق الحكيم ـ كنا نؤمن بأن التاريخ يمضى دائما الى الأمام ، ولا يرتد الى الخلف مهما تفاقمت الأحداث المريرة واشتدت الصراعات بين النقائض ، وعبث بمصير البشرية الطغاة وأرباب الظلام والرجعية • فاليوم فى يقيننا خير من الأمس ، والغد أكثر اشراقا من اليوم • ان ( أروع الأيام ما لم يأت بعد ، وأجمل الأطفال من لم يولد بعد ) كما يقول ناظم حكمت• وكنا نتغنى بمعزوفة أبى القاسم الشابى : ( اذا الشعب يوما أراد الحياة ، فلابد أن يستجيب القدر ـ ولابد لليل أن آن ينجلى ، ولابد للقيد أن ينكسر ) •

ولكننا رغم ارادة الحياة التى امتلكناها بكل قطرة من دمائنا ، وأودعناها كل ذرة من ترابنا ، هزمنا أبشع ما تكون الهزيمة وما يكون الموت فى حرب الأيام الستة المشئومة ، واستمر طعم الانكسار مرا فى حلوقنا • وعلى الرغم من حرب الاستنزاف المجيدة تحت قيادة البطل المأزوم جمال عبد الناصر ، فقد ظلت

الأشباح السود تطغي على شعاعات الفجر وتحجب وجه النصر ، لأن سيناء ــ أرض الفيروز ومعبر الأنبياء ومجلى فرســان أحمس وتحتمس ورمسيس وصلاح الدين وابراهيم بن محمد علي ــ كانت تبيت أسيرة دامعة العينين تشكو طول الانتظار ، وبؤس الفراق ، وبأس أقدام الصهيونيين الدنسة التي لوثتها ، وملأتنا احساسا بالعار ، كلما وطئت أعناقنا وخنقت أنفاسنا ، وقتلت ــ كعهدها منذ القدم ــ أطفالنا واستباحت مقدساتنا ·

حينئذ بدأنا نعيد النظر في مسلماتنا ومنها مقولة ان التاريخ يسير في حركته الدائبة الى الأمام ، لأن كل يوم يمر على احتلال سيناء كان يمضي علينا كألف عام ، واختلطت الرؤى في ناظرى وعقلي ،فتذكرت أن عصر المماليك والعثمانيين المظلم قد جثم على صدر مصر وكثير من البلدان العربية أكثر من أربعة قرون ، على حين كانت أوربا قد تخطت عصر الظلمات في القرون الوسطى ، وبلغت بعد ذلك أوج انتصارها وازدهار حضارتها التي مازالت تظل العالم حتى اليوم · ومن قبــل المماليك والعثمانيين البغاة ، هناك في فجر التاريخ ، استمر الهكسوس الرعاة الغزاة يحتلون مصر أكثر من مائة عام ·

وهكذا أدركت ــ مع حقيقة أن الشعب مثل البحار لا تموت ، وأنها تنتصر في نهاية الصراع ــ أن التاريخ قد يقبع ساكنا راكدا عشرات أو مئات السنين ، ولكنه لا يلبث أن ينتفض كالمارد ليعدل ويصحح مسيرته · فهو مثل الخط البيــاني الذى يتذبذب في مساره صعودا وهبوطا ، ولكن المحصلة النهائية له هي الصعود الى الأعلى ·

وحين اســتعلى عنق الأفعى ، ومضى على اغتصــاب فلسطين الجريحة خمسون عاما دون أن يقدر على انقاذها الاخوة الأعداء ،

قلت معزيا نفسى : لا تقاس أعمار الشعوب بأعمار الأفراد ، وسوف تشرق الشمس ثانية • ولكن السؤال ظل يراودني متحديا مراوغا : يا أيها المدثر بالشعارات والنظريات !! متى ؟ ونحن فى عصر لا يقاس بالسنين وانما بالأيام بل بالساعات والثوانى • عصر الصواريخ وسفن الفضاء والأقمار الصناعية • والآخر يركز علمه على وجه القمر ، ونحن فى دوامة الذهول والغيبوبة ، وكثير من مفكرينا فى أبراجهم العاجية ، وشعراؤنا مكتئبون وقد كانوا رواد المقاومة !! والذين مازالوا يقاومون بشعرهم يتهمون بالعجز عن السباحة فى تيار الحداثة !!

ولم يكن عندى اجابة حاسمة على هذه التساؤلات غير شعاع من اليقين يبدو لى خافتا وأحيانا متوهجا فى آخر النفق ، وان ظللت مغرقا فى التساؤل : أما لهذا الليل من آخر ؟ ولكن شعرى كان فى واد آخر يستقى من نبع بعيد الأغوار ، وينبثق فى منطقة اللا وعى أكثر مما يصدر عما تعلمت ودرست • بل ينبثق من تراكم الوعى التاريخى الذى يظهر كالنبوءة • وهكذا مازلت أصرخ وأحرض على الصمود والنضال دون أن أتنازل عن شروط الجمال الفنى والابداع الحق •• واستمر مبشرا بالأمل ، أبث الوعى بالقدرة على انتزاع الوطن والانسان من براثن الطغيان •

وصدقت رؤيا الشعر بل حكمة التاريخ ومعجزة الشعوب ، فكان الوعد الحق •• أكتوبر العظيم •• ملحمة البطولة والفداء فى واحدة من أروع معارك التاريخ المصرى والعربى قديما وحديثا •

**الى الملتقى يا نخيل السويس :**

عشرين ضابط شرطة كنا •• والزمان أواخر سنة ١٩٧٣ . أما المكان فهو مدينة السويس والضفة الشرقية لسيناء •• فى

زيارة لاطلال خط باريف :·· بدت فى عينى المدينة الباسلة كأنها مدينة أشباح فقد هجر منها أهلها، ولم يبق منهم الا عدد ضئيل ·· منهم أطفال فى عمر الورود كانوا يلعبون على ظهر دبابتين غنمهما أبناء مصر المقاتلون · أما المشهد الثانى الذى سوف يظل كامنا فى قلبى وعينى فهو النخيل الذى مات واقفا وقد احترقت رؤوسه بعد أن صب عليها العدو نيران مدافعه ، والمسجد الذى تهدم والكنيسة التى لم تعد تقام فيها الصلوات بعد تدميرها ·

عبرنا قناة السويس ـ وكم كان مشهد مياهها مهيبا ـ الى حطام حصن ( عيون موسى ) أحد المواقع المنيعة بخط بارليف · هناك رأيت ما يعجز القلم عن وصفه ·· تجليات النصر العظيم الذى حققه المصريون بروحهم الأسطورية قبل أيديهم التى تحمل أدوات الدمار للصوص الشعوب وسفاكى دماء الأبرياء ·· انسابت من قلبى على شفتى أبيات من الشعر اكتملت قصيدة فى تلك الليلة التى لا تنسى ·· بعد أن عدنا الى مقر عملنا فى العاصمة · وانثالت الذكريات القريبة · فما ان مضت عدة أيام حتى وجدت بين يدى ـ وأنا لا أكاد أصدق ديوانا كاملا من وحى ٦ أكتوبر أطلقت عليه اسم احدى القصائد وهو ( حبنا أقوى من الموت ) ، ولكن القصيدة الدرامية الأولى التى استهللته بها هى الأثيرة عندى وهى ( الى الملتقى يا نخيل السويس ) · كان خطابى الى النخيل المحترق الشامخ مثل صروح الفراعنة ·· الى قلعة الأبطال الفدائيين ·· الى مصر ·· الى حبيبتى ·· الى أصغر طفل فى قريتى ·· الى روح أكتوبر التى أتمنى ألا تغادر أيامنا ولياليـنـا طوال العام · وألا تغدو مجرد شعار أو ذكرى عابرة ·

قدمت للديوانى بهذه الكلمات ( الى التى علمتنى أن الحب عطاء يسع العالم كله · والذين علمونى أن الحرب دفاعا عن الحب شرف للانسان ومنار للغد ) · فقد كانت رفيقة العمر تستزيدنى

كلما فرغت من ابداع نص سعرى وهى نقول : ( اكتب .. اكتب .. لا تتوقف ) . وحين أهديت اليها ما كتبت كنت أهدى فى شخصها ذوب قلبى الى حبيبتى .. الى مصر .. والى كل ذرة من ترابها وكل نجمة في سمائها وكل خفقة عصفور على أجران قراها فى الصعيد وفى الدلتا وفى الواحات وقريبا فى أرض الفيروز .. وتدفقت كأمطار الربيع ذكريات أكتوبر :

على الجسر يا أخت .. كان اللقاء

دعاء يشق العواصف .. برقا .. صلاه

وتكبيرة لم تزل للجنود

ومحرابنا تحت شمس الضحى كل هذا الفضاء

وهذى الفـــلاه

يموج بها الصمت .. تسكنها كائنات

مجنحة منشدات حرار التراتيل

تعزف لحن الخلاص

وترنو الى مهج فى الرمال

ظماء الى نفحة البرتقال

سجينا بغزة .. تحلم بالقدس .. والشهداء

على وقع أمطارنا قادمين وقصف الرصاص

وكنت بلا جسد تعبرين

كأنك عطر لريحانة

خلف هذى التلال خفية

ولكن همسك يحمل نبرة شجو دفين
ورعشة أشرعة النيل عند المساء
واطفالنا فى القرى فى ليالى الشتاء
لانك عذبت يا أخت
كانت بقايا السكاكين مغروسة بين نهديك
والشوك كلل رأسك هذا الوديع
لانك أقسمت الا دموع
تلوث أرض ضحاياك .. ألا رجوع
هبطت الينا بلا جسد تعبرين
وكنت نخيل السويس الذى احرقوه
وشرفتها غاب عنها القمر
وكنت نخيل السويس الذى احرقوه
وشرفتها غاب عنها القمر
وصوح زهر البنفسج والياسمين
وما قتلوك وما قتلوه
فمازلت فى السحب لا تنحنين
ولا يعرف الحزن عينيك لا تطرقين
ومازال وجهك احلى جبين

***

هنا فانظرى ذكريات الذين اقاموا الصواريخ
غابا من الموت حول ربيع المدائن
وساروا على الدم والنار ثم ترامو الى جنـة من صهير
الحديد ولفح المداخن
هنا ذكريات الصبا قاتل الليل
ثم استراح قريرا وراء حروف كتاب
هنا ذكريات الألى لم يعودوا لتسرى من دمهم فى السويس
بحار سرور جديدة
وينبت من لحمهم قمح سيناء كرم العريش
وتصدح احلى الأغاريد من شرفات بعيدة
هنا فانظرى ذكريات جنود المقوقس عادوا
ظهيرا لفرسان عمرو على الروم
يقتحمون الثغور السليبة
رياحا تمزق اعتى الجسور
وتنثر احنى البذور
على كل أرض حرام خضيبه
وهذى الهياكل سوذا تصفر فيها رياح المنون
وينقب احشاءها السائمون
تعالى خلى الآن تذكار لقيا شتيتين
رؤيا خلاص

ترامت كصيد طريح تمدد فى الشاطئين
ومن قدم كان قتل التماسيح فى النيل
رزق النسور وعيد القصاص
ولا تفزعى .. كل هذى النعوش
طوائركم صبغت بالدماء وجوه اللواتى
عشقت على غير لقيا .. نساء العريش
وها هى فى الطين مصلوبة
مثل صلبان طاغية والضحية « أحمد »
مازال يصرخ بين تلاميذ بحر البقر
كأن مزامير داود تحتقر الأبجدية
وتلعن سر الطفولة والأبدية
كان الكتاب المقدس رجس الشياطين
طير أبابيل تحصب هام البشر
وسيف تسلطه فوق أعناقنا نقمة وثنية
كأن مياه السويس عليها من الصفو روح الاله
وأنت بلا جسد فى دمى تعبرين القناه
وداعا الى الملتقى يا نخيل السويس
يموت الزمان الكئيب
ويبقى المكان الحبيب
وداعا على موعد تحت شمس الخليج
ومنزلنا كل هذى المروج
ومحرابنا كل هذا الفضاء
وداعا .. الى الملتقى يا سماء

❊ ❊ ❊

# الفهـــرس

| الموضـــوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
|  |

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب: ٢٣٥ الرقم البريدى: ١١٧٩٤ رمسيس
www.maktabetelosra..org
E-mail:info@egyptianbook.org

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٣٢٩ / ٢٠٠٥

I.S.B.N. 977 - 01 - 9641 - X



إن القراءة كانت ولا تزال وسوف تبقى، سيدة مصادر المعرفة، ومبعث الإلهام والرؤية الواضحة .. وعلى الرغم من ظهور مصادر حديثة للمعرفة، وبرغم جاذبيتها ومنافستها القوية للقراءة، فإننى مؤمنة بأن الكلمة المكتوبة تظل هى مفتاح التنمية البشرية، والأسلوب الأمثل للتعلم، فهى وعاء القيم وحافظة التراث، وحاملة المبادئ الكبرى فى تاريخ الجنس البشرى كله.

سوزان مبارك







الثمن ٢٠٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب